

التَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

وَالْأَخْذُ بِالسَّبَبِ

لشَّيْخِ الْإِسْلَامِ
أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ الْحَكِيمِ تَبَرُّجِيَّة



أَعَدَّ وَفَرَّغَ أَمَارِيَّةً وَعَلَّقَ عَلَيْهِ
أَبُو الْمَحْدِيِّ حَكْرُك

الدار المصرية اللبنانية



الْتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَالْأَخْذُ بِالسَّبَبِ

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م



طباعة • نشر • توزيع

الدار المصرية اللبنانية

١٦ شارع عبدالحق لرون - تلبريز ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس ٣٩٠٩٦١٨ - برقية دار خادم - ص.ب. ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH

PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO

التَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَالْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ

لشَّيْخِ الْإِسْلَامِ
أَمْدُهُ عَبْدُ الْحَلِيمِ بْنُ تَيْمِيَّةٍ
« ٦٦١ - ٧٢٨ هـ »

أَعَدَّ وَفَرَّغَ أَحْمَدُ بْنُ هَادِيَةَ وَعَلَى عَلَيْهِ
أَبُو الْمَجْدِ حَكِيمُ بْنُ حَكِيمٍ

الْمُطْبَعَةُ
لِلْمَدِينَةِ الْمَدِينَةِ الْمَدِينَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلكُمْ فَمَنْ
ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

التوكل على الله قيمة إسلامية مظلومة .. يظلمها الناس بسوء فهمهم لها
خروجاً بها عن معناها الحقيقي .. وقد حدث هذا منذ قرون عديدة - بل منذ
عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإلى الآن .

ولقد كان حرصه - عليه الصلاة والسلام - على تصحيح فهم المسلمين
لحقيقة التوكل كبيراً ، ومن أشهر الروايات في ذلك ما نقله أنس بن مالك - رضى
الله عنه - عن الأعرابي الذى أهمل عقل ناقته - توكلأ كما زعم - حتى ضاعت ،
فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اعقلها وتوكل » ^(١) .

وهذا الكتاب الذى جمعناه من أقوال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - رحمه
الله - من أنفس ما قيل في حقيقة التوكل ، وفى عدم تعارضه البتة مع ضرورة
السعى وطلب الرزق والأخذ بالأسباب ، بل لقد نجح الشيخ - رحمه الله وطيب
مثواه - فى إيضاح فكرة جوهرية عظيمة عندما أثبت بالأدلة النقلية والعقلية أن
التوكل على الله لا يستقيم بحال بدون طاعته - سبحانه - ولا طاعة بغير التزام ما
أمر به من الأخذ بالأسباب .

(١) رواه الترمذى ، وحسنه الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) رقم ١٠٦٨ ج ١/ ٢٤٢ .

وكان مصدرنا فيما جمعناه هنا (مجموع فتاوى شيخ الإسلام : أحمد بن تيمية) التي جمعها المرحوم عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، وتمت طباعتها بمكتبة (المعارف) بالرباط في المغرب ، في سبع وثلاثين مجلدا على نفقة المغفور له خالد ابن عبد العزيز آل سعود ملك السعودية السابق .

ولقد منَّ الله علينا حين شرعنا في هذا العمل إذ وفقنا إلى تنسيق ما جمعناه وتبويبه في فصول متجانسة بعد أن كان متناثرا في المجلدات المأخوذ منها ، وقد قمنا - بتوفيق من الله وحده - بتخريج الأحاديث العديدة به ، وكذا الآيات البيّنات من الكتاب الكريم ، وتقديم تراجم مختصرة لجمهور الأعلام الوارد ذكرهم في ثنايا الكتاب ، وذيّلنا بإعداد فهرس مرتبة للأحاديث الواردة ، وللأعلام المترجم لها .

وقد أثبتنا بجوار كل فقرة رقم المجلد والصفحات المنقول عنها تيسيرا على من يرغب في العودة إليها للاستزادة والتوثيق .
أدعو الله - سبحانه وتعالى - أن ينفع بهذا العمل ، وأن يجعله في صحائف أعمالنا الصالحة يوم العرض عليه ، والحمد لله رب العالمين .

أبو المجد حرك

أولاً : في وجوب السعي وطلب الرزق

* الفتوى الأولى (٥٢٤ - ٨/٥٣٩) :

سئل شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - قدس الله روحه - عما قاله أبو حامد الغزالي^(١) - في كتابه المعروف (بمنهاج العابدين) في زاد الآخرة من العقبة الرابعة : وهي العوارض ، بعد كلام تقدم في التوكل بأن الرزق مضمون - قال : فإن قيل : هل يلزم العبد طلب الرزق بحال ؟ فاعلم أن الرزق المضمون هو الغذاء والقوام ، فلا يمكن طلبه إذ هو شيء من فعل الله بالعبد ، كالحياة والموت ، لا يقدر العبد على تحصيله ولادفعه .

وأما المقسوم^(٢) من الأسباب فلا يلزم العبد طلبه ؛ إذ لا حاجة للعبد إلى ذلك ، إنما حاجته إلى المضمون وهو من الله وفي ضمان الله .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾^(٣) المراد به العلم والثواب وقيل : بل هو رخصة إذ هو أمر وارد بعد الحظر ، فيكون بمعنى الإباحة ، لا بمعنى الإيجاب والإلزام .

(١) أبو حامد الغزالي : محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي .. من طوس بخراسان ، فيلسوف متصوف لقيوه بحجة الإسلام ، تقرب مصنفاته من المائتين علدا ، ومن أشهرها (إحياء علوم الدين) و(تهافت الفلاسفة) و(المقصد من الضلال) وغيرها كثير .. ولد - رحمه الله - بطوس (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) ومات فيها (٥٠٥ هـ / ١١١١ م) [انظر ترجمته في : وفيات الأعيان ٤٦٣/١ وطبقات الشافعية ١٠١/٤ ، وشذرات الذهب ١٠/٤] الأعلام للزركلي ٢٢/٧

(٢) كانت (وما المقسوم) فصولها حسب مقتضى السياق وراجعتها على نسخة (منهاج العابدين) المذكور .

(٣) من الآية ١٠ من سورة الجمعة : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . صدق الله العظيم .

فإن قيل : لكن هذا الرزق المضمون له أسباب ، هل يلزم منا طلب الأسباب ؟ قيل : لا يلزم منك طلب ذلك إذ لا حاجة بالعبد إليه ، إذ الله - سبحانه - يفعل بالسبب ، وبغير السبب ، فمن أين يلزمنا طلب السبب ؟ ثم إن الله ضمن ضماناً مطلقاً من غير شرط الطلب والكسب ، قال - تعالى - : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾^(١).

ثم كيف يصح أن يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه فيطلبه ؟! إذ لا يعرف أى سبب منها رزقه [يتناوله لا عرف الذى صير]^(٢) وترتيبه لا غير ، فالواحد منا لا يعرف ذلك السبب بعينه ، من أين حصل له ؟ فلا يصح تكليفه ، فتأمل - راشداً - فإنه بين . ثم حسبك أن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - والأولياء المتوكلين لم يطلبوا الرزق فى الأكثر والأعم ، وتجردوا للعبادة ، وبإجماع أنهم لم يكونوا تاركين لأمر الله تعالى ، ولا عاصين له فى ذلك ، فليس لك أن تطلب الرزق وأسبابه بأمر لازم للعبد .

فما الفرق بين هذا الكلام من هذا الإمام والمنصوص عليه فى كتب الأئمة : كالفقه وغيره ؟ وهو أن العبد يجب عليه طلب الرزق وطلب سببه - وأبلغ من ذلك أن العبد لو احتاج إلى الرزق ووجده عند غيره فاضلاً عنه وجب عليه طلبه منه ، فإن منعه قهره ، وإن قتله . فهل هذا الذى نص عليه فى المنهاج يختص بأحد دون أحد ؟ فأوضحوا لنا ما أشكل علينا من تناقض الكلامين ، مثاين ، مأجورين ، وإبسطوا لنا القول .

فأجاب - رضى الله عنه - :

الحمد لله رب العالمين : هذا الذى ذكره أبو حامد قد ذهب إليه طائفة من الناس ولكن أئمة المسلمين وجمهورهم على خلاف هذا ، وأن الكسب يكون

(١) جزء من الآية : ٦ من سورة هود .

(٢) اضطراب فى السياق صوابه : [الذى يتناوله لا غير ، والذى يصير سبب غذائه] هكذا وجدناه فى (منهاج العابدين) للغزالي طبعة مصطفى الحلبي بمصر - رمضان ٣٣٧ هـ - صفحة ٤٩ وماعدا ذلك من اختلافات يسيرة ضربنا عنها صفحاً لعدم تأثيرها على المعنى أو سلامة السياق .

واجبا تارة ، ومستحبا تارة، ومكروها تارة ، ومباحا تارة ، ومحرمات تارة فلا يجوز إطلاق القول بأنه لم يكن منه شيء واجب ، كما أنه لا يجوز إطلاق القول بأنه ليس منه شيء محرم .

والسبب الذي أمر العبد به أمر إيجاب أو أمر استحباب : هو عبادة الله وطاعته له ولرسوله . والله فرض على العباد أن يعبدوه ويتوكلوا عليه . كما قال - تعالى - : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ ^(١) وقال ﴿ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ ^(٢) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ^(٣) وقال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ^(٤) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ^(٥) ﴾ ^(٦).

والتقوى تجمع فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه . ويروى عن أبي ذر ^(٧) عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَلَوْ عَمِلَ النَّاسُ كُلُّهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ لَوَسِعَتْهُمْ » ^(٨).

ولهذا قال بعض السلف : ما احتاج تقى قط . يقول : إن الله ضمن للمتقين أن يجعل لهم مخرجا مما يضيق على الناس ، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون ؛ فيدفع عنهم ما يضرهم ويجلب لهم ما يحتاجون إليه . فإذا لم يحصل ذلك دل على أن

(١) جزء من الآية : ١٢٣ من سورة هود .

(٢) الآيتان : ٨ ، ٩ من سورة المزمل .

(٣) جزء من الآيتين ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

(٤) هو الصحابي الجليل : أبو ذر الغفاري ، واسمه جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد ، من غفار ، وإن كان في اسمه واسم أبيه خلاف ، من أوائل المسلمين إسلاما ، يقال : كان خامس المسلمين اشتهر بالصدق والورع والكرم ، فلما مات لم يكن في داره ما يكفن به ، وهو أول من حيّا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتحية الإسلام ، وكان لمعاوية وعثمان مواقف معه بسبب تحريضه الفقراء على مشاركة الأغنياء في أموالهم ، حتى نفاه عثمان إلى الريدة من قرى المدينة ، حيث توفي سنة ٣٢ هجرية (٦٥٣ م) روى له البخاري ومسلم ٢٨١ حديثا [انظر ترجمته في : طبقات ابن سعد ١٦١/٤ - ١٧٥ ، والإصابة ٦٠/٧ ، وصفة الصفوة ٢٣٨/١ ، وحلية الأولياء ١٥٦/١] الأعلام للزركلي ١٤٠/٢

(٥) رواه أحمد وأحمد والنسائي وابن حبان والحاكم وابن ماجه والدارمي ، وضعفه الألباني في (ضعيف الجامع الصغير وزيادته) حديث رقم ٦٣٨٧ ج ٩٧/٣ وقال في تخريجه لأحاديث (مشكاة المصابيح) رقم ٥٣٠٦ ج ١٤٦٠/٣ : إسناده منقطع .

في التقوى خلافاً ، فليستغفر الله وليتب إليه ، ولهذا جاء في الحديث المرفوع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي رواه الترمذى ^(١) أنه قال : « مَنْ أَكْثَرَ الْإِسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ قَرَجاً ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » ^(٢) .

و(المقصود) : أن الله لم يأمر بالتوكل فقط ، بل أمر مع التوكل بعبادته وتقواه التي تتضمن فعل ما أمر ، وترك ما حذر ، فمن ظن أنه يرضى ربه بالتوكل بدون فعل ما أمر به كان ضالاً ، كما أن من ظن أنه يقوم بما يرضى الله عليه دون التوكل كان ضالاً ، بل فعل العبادة التي أمر الله بها فرض .

وإذا أطلق لفظ العبادة دخل فيها التوكل ، وإذا قرن أحدهما بالآخر كان للتوكل اسم يخصه ؛ كما في نظائر ذلك مثل التقوى وطاعة الرسول ؛ فإن (التقوى) إذا أطلقت دخل فيها طاعة الرسول ، وقد يعطف أحدهما على الآخر كقول نوح - عليه السلام - ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ^(٣) وكذلك قوله : ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ^(٤) وأمثال ذلك .

وقد جمع الله بين عبادته والتوكل عليه في مواضع ، كقوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ ^(٥) وقول شعيب : ﴿عَلَيْهِ

(١) هو أبو عيسى : محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمى البوغى الترمذى ، نسبة إلى أهل ترمذ (على نهر جيحون) من أئمة علماء الحديث وحفاظه ، تلميذ البخارى ، وله تصانيف كثيرة أشهرها (الجامع الكبير) أو (صحيح الترمذى) و(المسائل النبوية) و(العلل) في الحديث .. عاش فيما بين (٢٠٩ هـ/٨٢٤ م) و(٢٧٩ هـ/٨٩٢ م) [انظر ترجمته في : تهذيب التهذيب ٣٨٧/٩ ، ونكت الهميان ٢٦٤ ، وأنساب السمعاني ٩٥ ، وتذكرة الحفاظ ١٨٧/٢] الأعلام للزركلى ٣٢٢/٦ .

(٢) رواه أحمد والحاكم عن ابن عباس ، وضعفه الألبانى في (ضعيف الجامع الصغير) برقم ٥٤٨٠ ج ١٧٦/٣ والحديث في (كنز العمال) برقم ٢٠٦٩ ج ٤٧٦/١ وله رواية أخرى بلفظ : (وَمَنْ لَزِمَ الْإِسْتِغْفَارَ) رواه أبو داود وابن ماجه عن ابن عباس وضعفه الألبانى أيضاً في (ضعيف الجامع الصغير) برقم ٥٨٤١ ج ٢٤٨/٣ وقال في تحريجه وسنده ضعيف ؛ الحكم بن مصعب : مجهول كما قال الحافظ في التقريب (انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة) حديث رقم ٧٠٥ ج ١٤٢/٢ و(كنز العمال) رقم ٢٠٨٣ ج ٤٧٨/١ .

(٣) جزء من الآية : ٣ من سورة نوح .

(٤) جزء من الآية : ٧٠ من سورة الأحزاب . (٥) جزء من الآية : ٣٠ من سورة الرعد .

تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١﴾ فَإِنَّ الْإِنَابَةَ إِلَى اللَّهِ وَالْمُنَابَ : هو الرجوع إليه بعبادته وطاعته وطاعة رسوله ، والعبد لا يكون مطيعاً لله ورسوله - فضلاً أن يكون من خواص أوليائه المتقين - إلا بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، ويدخل في ذلك التوكل .

وأما من ظن أن التوكل يغنى عن الأسباب المأمور بها فهو ضالٌّ ، وهذا كمن ظن أنه يتوكل على ما قَدَّرَ عليه من السعادة والشقاوة بدون أن يفعل ما أمره الله .

وهذه (المسألة) مما سئل عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما في الصحيحين عنه - صلى الله عليه وسلم - قال : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ » فقيل : يارسول الله : أَفَلَا تَدْعُ الْعَمَلَ وَتَتَكَلَّمُ عَلَى الْكِتَابِ ؟ فقال : « لَا اْعْمَلُوا ؛ فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ » ^(١) وكذلك في الصحيحين عنه أنه قيل له : « أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ فِيهِ وَيَكْدَحُونَ ، أَيْمًا جَفَّتِ الْأَقْلَامُ وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ ؟ » ولما قيل له : أَفَلَا تَتَكَلَّمُ عَلَى الْكِتَابِ ؟ قال : « لَا اْعْمَلُوا فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ » ^(٢) .

وبين - صلى الله عليه وسلم - أن الأسباب المخلوقة والمشروعة هي من القدر ، فقيل له : « أَرَأَيْتَ رُقَى نَسْتَرْقِي بِهَا ؟ وَتُقَى نَتَّقِي بِهَا ؟ وَأَدْوِيَةٌ تَدَاوِي بِهَا ، هَلْ تُرَدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ شَيْئًا ؟ فقال : هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ » ^(٣)

(١) جزء من الآية : ٨٨ من سورة هود .

(٢) رواه أحمد والشيخان ، وأصحاب السنن الأربعة : عن علي ، وهو هنا يتصرف بسيط في الألفاظ . انظر نص الحديث في (فتح الباري) كتاب القدر ٦٦٠٥ ج ٥٠٣/١١ ، و(صحيح مسلم) كتاب القدر ٦ ج ٦/٨ .. والحديث في (صحيح الجامع الصغير) للألباني برقم ٥٧٩٤ ج ١٠٠٩/٢ وفي (مشكاة المصابيح) للترمذي بتحقيق الألباني رقم ٨٥ ج ٣١/١ وفي (كنز العمال) برقم ٥٨٠ ج ١٢٢/١ و ١٥٥٥ ج ٣٤٣/١ وفي (مختصر صحيح مسلم) للمنذرى بتحقيق الألباني رقم ١٨٤٤ ص ٤٨٧ .

(٣) حديث صحيح : رواه الشيخان من حديث جابر بن عبد الله ، وعند مسلم أن السائل كان سراقاً بن مالك بن جعشم ، انظر (كتاب القدر) حديث رقم ٨ ج ٨/٨ وأخرجه ابن ماجه من حديث سراقه نفسه ، والترمذي من حديث ابن عمر وغيرهم وهو في (صحيح البخاري) من حديث عمران بن الحصين انظر (فتح الباري) كتاب القدر ، حديث رقم ٦٥٩٦ ج ٤٩٩/١١ .

(٤) رواه ابن ماجه والترمذي وأحمد ، وضعفه الألباني في (التعليقات الرضية على الروضة الندية) (٢٨٨/٢) انظر (ضعيف سنن ابن ماجه) حديث رقم ٧٤٩ ص ٢٧٨

فالاتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع ، فعلى العبد أن يكون قلبه معتمدا على الله ، لا على سبب من الأسباب ، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها فعَلَهَا مع التوكل على الله ، كما يؤدي الفرائض ، وكما يجاهد العدو ، ويحمل السلاح ، ويلبس جنة الحرب ، ولا يكتفى في دفع العدو على مجرد تركه بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد ، ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم .

وفي صحيح مسلم ^(١) عن أبي هريرة ^(٢) - رضى الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم -

قال : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ ، اِخْرَصَ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِينَ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ؛ فَإِنْ لَوْ تَفَتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » ^(٣) .

وفي سنن أبي داود ^(٤) أن رجلين تحاكما إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -

(١) هو الإمام الحافظ أبو الحسين : مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، من أئمة الحديث ، ولد في نيسابور (٢٠٤ هـ - ٨٢٠ م) وتوفي فيها (٢٦١ هـ - ٨٧٥ م) من أشهر مصنفاته (صحيح مسلم) به ١٢٠٠٠ حديث كتبها في خمس عشرة سنة [انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ ١٥٠/٢ ، وتهذيب التهذيب ١٠/٢٦١ ، وابن خلكان ٩١/٢ ، والبداية والنهاية ٣٣/١١ ، وطبقات الخنابلة ٣٣٧/١] الأعلام للزركلي ٢٢١/٧ .

(٢) هو عبد الرحمن بن صخر اللومى ، المعروف بأبي هريرة : من أكثر الصحابة رواية للحديث وحفظا له قدم المدينة فأسلم في السنة السابعة للهجرة ، ولزم النبي - صلى الله عليه وسلم - روى عنه ٥٣٧٤ حديثا نقلها عنه أكثر من ٨٠٠ رجل من الصحابة والتابعين ، عُمَرُ طويلا (٢١ ق . ٦٠٢/هـ - ٥٩ هـ / ٦٧٩ م) [انظر ترجمته في حلية الأولياء ٣٧٦/١ ، وصفة الصفوة ٢٨٥/١] الأعلام للزركلي ٣٠٨/٣ .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، وابن ماجه : عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في (صحيح الجامع الصغير) حديث رقم ٦٦٥٠ ج ١١٢٩/٢ .

(٤) هو أبو داود : سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني (٢٠٢ هـ / ٨١٧ م - ٢٧٥ هـ / ٨٨٩ م) من أهل الحديث ، له (السنن) يحتوي على ٤٨٠٠ حديثا منتقاة من أصل ٥٠٠٠٠٠ حديث [انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ ١٥٢/٢ ، وطبقات الخنابلة ١١٨ ، وتهذيب ابن عساكر ٢٤٤/٦ وتاريخ بغداد ٥٥/٩ وابن خلكان ٢١٤/١] الأعلام للزركلي ج ١٢٢/٣ .

فقضى على أحدهما ، فقال المقضى عليه : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّ اللَّهَ يُلَوِّمُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنَّ عَلَيْكَ بِالْكَيسِ فَإِنَّ غَلْبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » ^(١).

وقد تكلم الناس في حمل الزاد في الحج وغيره من الأسفار ، فالذى مضت عليه سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسنة خلفائه الراشدين وأصحابه والتابعين لهم بإحسان ، وأكابر المشائخ هو حمل الزاد ؛ لما في ذلك من طاعة الله ورسوله ، وانتفاع الحامل ونفعه للناس .

وزعمت (طائفة) أن من تمام التوكل أن لا يحمل الزاد ، وقد رد الأكابر هذا القول ، كما رده الحارث المحاسبى ^(٢) في (كتاب التوكل) وحكاه عن شقيق البلخى ^(٣) ، وبالع في الرد على من قال بذلك وذكر من الحجج عليهم ما يبين به غلطهم وأنهم غالطون في معرفة حقيقة التوكل وأنهم عاصون لله بما يتركون من طاعته وقد حكى لأحمد بن حنبل ^(٤) أن بعض الغلاة الجهال بحقيقة التوكل كان

(١) رواه أبو داود عن عوف بن مالك (كتاب الأفضية) حديث رقم ٣٦٢٧ ج ٣/٣١٣ والحديث صحيح أورده الألبانى في (صحيح الكلم الطيب) .

(٢) هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى من كبار الصوفية .. اشتهر بالزهد والوعظ وله دراية بالأصول والمعاملات ، صاحب تصانيف كثيرة منها (كتاب التوهم) و(كتاب التوكل) و(المسائل في أعمال القلوب والجوارح) ولد بالبصرة وتوفى ببغداد سنة (٢٤٣ هـ / ٨٥٧ م) . [انظر في ترجمته : تهذيب التهذيب ١٣٤/٢ ، وصفة الصفوة ٢/٢٠٧ ، وميزان الاعتدال ١/١٩٩ ، وحلية الأولياء ١٠/٧٣] الأعلام للزركلى ج ١٥٣/٢ .

(٣) هو أبو على : شقيق بن إبراهيم بن على الأزدى البلخى : صوفى من الزهاد ، كان من المجاهدين ، استشهد في غزوة (كولان) فيما وراء النهر سنة ١٩٤ هـ / ٨١٠ م [انظر ترجمته في : فوات الوفيات ١٨٧/١ ، والوفيات ١/٢٢٦ ، وحلية الأولياء ٨/٥٨ ، وميزان الاعتدال ١/٤٤٩] الأعلام للزركلى ج ١٧١/٣ .

(٤) هو أبو عبد الله : أحمد بن محمد بن حنبل الإمام المحدث الفقيه صاحب الشهرة إليه ينسب المذهب الحنبلى ، كان جوالاً في طلب العلم ، له (المسند) المشتمل على ثلاثين ألف حديث ، خالف المعتزلة فنعرض للامتحان والتعذيب ، ولد في بغداد (١٦٤ هـ / ٧٨٠ م) وتوفى فيها (٢٤١ هـ / ٨٥٥ م) [انظر في ترجمته : ابن عساكر ٢/٢٨ ، وحلية الأولياء ٩/١٦١ وصفة الصفوة ٢/١٩٠ ، وابن خلكان ١/١٧ ، وتاريخ بغداد ٤/٤١٢ والبداية والنهاية ١٠/٣٢٥ - ٣٤٣] الأعلام للزركلى ج ٢٠٣/١ .

إذا وضع له الطعام لم يمد يده حتى يوضع في فمه ، وإذا وضع يطبق فمه حتى يفتحوه ويدخلوا فيه الطعام ، فأنكر ذلك أشد الإنكار ، ومن هؤلاء من حرم المكاسب .

وهذا وأمثاله من قلة العلم بسنة الله في خلقه وأمره ، فإن الله خلق المخلوقات بأسباب وشرع للعباد أسبابا ينالون بها مغفرته ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة ، فمن ظن أنه بمجرد توكله مع تركه ما أمره الله به من الأسباب يحصل مطلوبه ، وأن المطالب لا تتوقف على الأسباب التي جعلها الله أسبابا لها ، فهو غالط فالله - سبحانه - وإن كان قد ضمن للعبد رزقه ، وهو لا بد أن يرزقه ما عُمِّرَ ، فهذا لا يمنع أن يكون ذلك الرزق المضمون له أسباب تحصل من فعل العبد وغير فعله

و(أيضا) فقد يرزقه حلالاً وحراماً ، فإذا فعل ما أمره به رزقه حلالاً ، وإذا ترك ما أمره به فقد يرزقه من حرام

ومن هذا الباب الدعاء والتوكل ، فقد ظن بعض الناس أن ذلك لا تأثير له في حصول مطلوب ، ولا دفع مرهوب ، ولكنه عبادة محضة ، ولكن ما حصل به حصل بدونه ، وظن آخرون أن ذلك مجرد علامة ، والصواب الذي عليه السلف والأئمة والجمهور أن ذلك من أعظم الأسباب التي تنال بها سعادة الدنيا والآخرة .

وما قدره الله بالدعاء والتوكل والكسب وغير ذلك من الأسباب إذا قال القائل : فلو لم يكن السبب ماذا يكون ؟ بمنزلة من يقول هذا المقتول لو لم يقتل هل كان يعيش ؟ وقد ظن بعض القدرية أنه كان يعيش ، وظن بعض المنتسبين إلى السنة أنه كان يموت ، والصواب أن هذا تقدير لأمر علم الله أنه يكون فالله قدر موته بهذا السبب فلا يموت إلا به ، كما قدر الله سعادة هذا في الدنيا والآخرة بعبادته ودعائه وتوكله وعمله الصالح وكسبه ، فلا يحصل إلا به ، وإذا قدر عدم هذا السبب لم يعلم ما يكون المقدير ، ويتقدير علمه فقد يكون المقدر حينئذ أنه يموت ، وقد يكون المقدر أنه يحيى ، والجزم بأحدهما خطأ .

ولو قال القائل : أنا لا أكل ولا أشرب ، فإن كان الله قدر حياتي فهو يميني

بدون الأكل والشرب كان أحق ، كمن قال : أنا لا أطأ امرأتى ، فإن كان الله قدر لى ولداً تحمل من غير ذكر .

فصل (١)

إذا عرف هذا : فالسالكون طريق الله : منهم من يكون مع قيامه بما أمره الله به من الجهاد والعلم والعبادة وغير ذلك عاجزا عن الكسب ، كالذين ذكرهم الله في قوله ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا﴾ (١) والذين ذكرهم الله في قوله ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٢) .

(الصف الأول) أهل صدقات ، (والصف الثاني) أهل المئ ، كما قال - تعالى - في الصف الأول : ﴿إِنْ تَبَدُّوا أَلْصَدَقَاتِ فَنِعْمَ هِيَ وَإِنْ خَفُّوْهَا وَتَوَتُّوْهَا أَلْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٣) إلى قوله : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال في (الصف الثاني) : ﴿مَا آفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (٤) إلى قوله : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ ثم قال : ﴿وَالَّذِينَ

(١) أثبتنا هذا العنوان الفاصل كما وجدناه في الأصل المطبوع وفي نفس موضعه

(٢) جزء من الآية ٢٧٣ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٨ من سورة الحشر .

(٤) الآية ٢٧١ من سورة البقرة .

(٥) جزء من الآية ٧ من سورة الحشر .

تَبَوُّهُمُ وَالَّذَارُ وَالْإِيمَنَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿١﴾ فذكر المهاجرين والأنصار ، وكان المهاجرون تغلب عليهم التجارة ، والأنصار تغلب عليهم الزراعة ، وقد قال للطائفتين : ﴿ أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ (٢) فذكر زكاة التجارة وزكاة الخارج من الأرض وهو العشر ، أو نصف العشر ، أو ربع العشر .

ومن السالكين من يمكنه الكسب مع ذلك ، وقد قال تعالى لما أمرهم بقيام الليل : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ ۚ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٣) فجعل المسلمين أربعة أصناف : صنفا أهل القرآن والعلم والعبادة ، وصنفا يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وصنفا يجاهدون في سبيل الله ، والرابع المعذورون .

وأما قول القائل : إن الغذاء والقوام هو من فعل الله ، فلا يمكن طلبه كالحياة ، فليس كذلك هو ، بل ما فعل الله بأسباب يمكن طلبه بطلب الأسباب كما مثله في الحياة والموت ، فإن الموت يمكن طلبه ودفعه بالأسباب التي قدرها الله ، فإذا أردنا أن يموت عدو الله سعينا في قتله ، وإذا أردنا دفع ذلك عن المؤمنين بدفعناه بما شرع الله الدفع به ، قال - تعالى - في داود - عليه السلام - : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ (٤) وقال - تعالى - : ﴿ سَرَّيْلَ تَقِيَكُمْ الْحَرَ وَسَرَّيْلَ تَقِيَكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ (٥) وقال - تعالى - : ﴿ فَلْيَصِلُوا أَمْعَاكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ (٦) وهذا مثل دفع الحر والبرد عنا هو من فعل الله باللباس (٧) والاكْتِسَابُ ، ومثل دفع الجوع والعطش هو

(١) جزء من الآية ٩ من سورة الحشر .

(٢) جزء من الآية ٢٦٧ من سورة البقرة .

(٣) جزء من الآية ٢٠ من سورة المزمل .

(٤) جزء من الآية ٨٠ من سورة الأنبياء .

(٥) جزء من الآية ٨١ من سورة النحل .

(٦) جزء من الآية ١٠٢ من سورة النساء .

(٧) كانت (فاللباس) فصولها .

بالطعام والشراب ، وهذا كما أن إزهاق الروح هو من فعل الله ، و يمكن طلبه بالقتل ، وحصول العلم والهدى في القلب ، هو من فعل الله ويمكن طلبه بأسبابه المأمور بها وبالبدعاء .

وقول القائل : إن الله يفعل بسبب وبغير سبب ، فمن أين يلزمنا طلب السبب جوابه : أن يقال له : ليس الأمر كذلك بل جميع ما يخلقه الله ويقدره إنما يخلقه ويقدره بأسباب ، لكن من الأسباب ما يخرج عن قدرة العبد ومنها ما يكون مقلورا له ، ومن الأسباب ما يفعله العبد ومنها ما لا يفعله .

والأسباب منها (معتاد) ومنها (نادر) ، فإنه في بعض الأعوام قد يمسك المطر ويغذى الزرع بريج يرسلها ، وكما يكثر الطعام والشراب بدعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - والرجل الصالح ، فهو أيضا من الأسباب .

ولاريب أن الرزق قد يأتي على أيدي الخلق ، فمن الناس من يأتيه برزقه جني أو ملك أو بعض الطير والبهائم ، وهذا نادر والجمهور إنما يرزقون بواسطة بني آدم مثل أكثر الذين يعجزون عن الأسباب ، يرزقون على أيدي من يعطيهم : إما صدقة ، وإما هدية ، أو نذرا ، وإما غير ذلك بما يؤتيه الله على أيدي ما يسره لهم .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « يَا أَيُّهَا آدَمُ أَنْ تُنْفِقَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ ، وَأَنْ تُمَسِكَ الْفَضْلَ شَرٌّ لَكَ ، وَلَا يُلَامُ عَلَى كَفَافٍ ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى » ^(١) وفي حديث صحيح : « يَدُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَيَدُ الْمُعْطَى الَّتِي تَلِيهَا ، وَيَدُ السَّائِلِ السُّفْلَى » ^(٢) .

وبعض الناس يزعم أن يد السائل الآخذ هي العليا ، لأن الصدقة تقع بيد

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذي عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في (صحيح الجامع الصغير وزيادته)

حديث رقم ٧٨٣٤ ج ١٢٩٣/٢ ، كما أخرجه في (إرواء الغليل) ، حديث رقم ٨٣٤ .

(٢) رواه أحمد عن مالك بن نضلة ، وطرف الحديث : (الأيدي ثلاثة : بيد الله العليا) الحديث .

وقد صححه الألباني في (صحيح الجامع الصغير) برقم ٢٧٩٤ ج ١/٥٤ ، وهو في (كنز العمال) تحت

رقم ١٦٠٤٧ ج ٣٥٨/٦ ، ١٦١٥٤ ج ٣٨١/٦ ، وأخرجه الحاكم في (المستدرک) كتاب الزكاة ٤٠٨/١

وقال : صحيح الإسناد ، وسكت عنه الذهبي في التلخيص ، وأخرجه أبو داود في (كتاب الزكاة) باب (في

الاستغفار) حديث رقم ١٦٣٣ .

الحق ، وهذا خلاف نص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين أخبر : أن يد الله هي العليا ، ويد المعطى التي تليها ، ويد السائل السفلى .

وقول القائل : إن الله ضمن ضمانا مطلقا .

فيقال له : هذا لا يمنع وجوب الأسباب على ما يجب ، فإن فيما ضمنه رزق الأطفال والبهائم والزوجات ، ومع هذا فيجب على الرجل أن ينفق على ولده وبهائمه وزوجته ، بإجماع المسلمين ، ونفقته على نفسه أوجب عليه .

وقول القائل : كيف يطلب ما لا يعرف مكانه ؟

جوابه : إنه يفعل السبب المأمور به ويتوكل على الله فيما يخرج عن قدرته ، مثل الذى يشق الأرض ويلقى الحب ويتوكل على الله فى إنزال المطر وإنبات الزرع ودفع المؤذيات ، وكذلك التاجر غاية قدرته تحصيل السلعة ونقلها ، وأما إلقاء الرغبة فى قلب من يطلبها وبذل الثمن الذى يربح به فهذا ليس مقدورا للعبد ، ومن فعل ما قدر عليه لم يعاقبه الله بما عجز عنه ، والطلب لا يتوجه إلى شيء معين ، بل إلى ما يكفيه من الرزق ، كالداعى الذى يطلب من الله رزقه وكفايته من غير تعيين .

فصل

فإذا عرف ذلك : فمن الكسب ما يكون واجبا ، مثل الرجل المحتاج إلى نفقته على نفسه أو عياله أو قضاء دينه وهو قادر على الكسب ، وليس هو مشغولاً بأمر أمره الله به ، هو أفضل عند الله من الكسب ، فهذا يجب عليه الكسب باتفاق العلماء ، وإذا تركه كان عاصيا آثماً .

ومنه ما يكون مستحبا : مثل هذا إذا اكتسب ما يتصدق به ، فقد ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى ^(١) عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه

(١) هو أبو موسى عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب ، من بنى الأشعر : صحابى جليل من الفاتحين ، اشتهر تاريخيا بأنه أحد الحكمين بين على ومعاوية ، ولد فى اليمن (٢١ ق هـ / ٦٠٢ م) وأسلم مبكرا ، وتوفى بالكوفة (٤٤ هـ / ٦٦٥ م) ، له ٣٥٥ حديثا [انظر فى ترجمته : طبقات ابن سعد ٧٩/٤ ، والإصابة الترجمة رقم ٤٨٨٩ ، وصفة الصفوة ٢٢٥/١ ، وحلية الأولياء ٢٥٦/١] الأعلام للزركلى ج ١٤/٤ .

قال : « عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ : فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ : يَعْمَلُ بِيَدِهِ يَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ . قَالُوا : فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ : يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ . قَالُوا : فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ : فليَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَلْيَنْهَ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ » ^(١) .

فصل

وأما قول القائل : إن الأنبياء والأولياء لم يطلبوا رزقا فليس الأمر كذلك ، بل عامة الأنبياء كانوا يفعلون أسبابا يحصل بها الرزق ، كما قال نبينا - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الذى رواه أحمد في المسند عن ابن عمر ^(٢) عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَخُدَّه لِاشْرِيكَ لَهُ ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي ، وَجُعِلَ الذَّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » ^(٣) .

وقد ثبت في الصحيح قوله - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّ أَفْضَلَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ » ^(٤) . وكان داود يأكل من كسبه ، وكان يصنع الدروع .

(١) أخرجه البخارى (١٢١/٢) ، ومسلم (٨٣/٣) ، والنسائى (٣٥١/١) ، وأحمد (٣٩٥/٤ ، ٤١١) من حديث أبى موسى الأشعرى ، وهو فى (صحيح الجامع الصغير) برقم ٤٠٣٧ ج ٧٤٦/٢ وفى (سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها) للألبانى أيضا برقم ٥٧٣ ج ٩٥/٢ .
(٢) هو أبو عبد الرحمن : عبد الله بن عمر بن الخطاب العلوى : صحابى جليل نشأ فى الإسلام ، وهاجر مع أبيه إلى المدينة وكان يماثله فى الفضل والشرف ولد بمكة (١٠ ق هـ / ٦١٣ م) وتوفى فيها (٧٣ هـ / ٦٩٢ م) له فى كتب الحديث ٢٦٣ حديثا [انظر ترجمته فى الإصابة ٤٨٢٥ ، وابن خلكان ٢٤٦/١ ، وغيذيب الأسماء ٢٧٨/١ ، وطبقات ابن سعد ١٠٥/٤ - ١٣٨ ، وحلية الأولياء ٢٩٢/١ ، وصفة الصفوة ٢٢٨/١ الأعلام للزركلى ج ١٠٨/٤ .
(٣) رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والطبرانى : عن ابن عمر ، وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) برقم ٢٨٣١ ج ٥٤٥/١ وأفاض فى تخريجه فى (إرواء الغليل) حديث رقم ١٢٦٩ ج ١٠٩/٥ .
(٤) رواه أبو داود ، والحاكم : عن عائشة ، ونصه : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وولده من كسبه » غير أن الروايات بهذا المعنى عديدة وبألفاظ قريبة ، فانظر أبا داود : (البيوع ٧٧) ، وابن ماجه : (تجارات ١ ، ٦٤) ، وأحمد : ٣١/٦ ، ٤٢ ، ١٢٧ ، ١٧٣ ، ١٩٣ ، ٢٠٢ ، ٢٢٠ ، والدارمى : (بيوع ٦) ، وصححه الألبانى فى تخريجه لأحاديث (منار السبيل) المسمى (بإرواء الغليل) حديث رقم ١٦٢٦ ج ٦٥/٦ .

وكان زكريا نجارا ، وكان الخليل له ماشية كثيرة حتى إنه كان يقدم للضيف الذين لا يعرفهم عجلاً سمينا ، وهذا إنما يكون مع اليسار .

وخيار الأولياء المتوكلين : المهاجرون والأنصار ، وأبو بكر الصديق^(١) - رضي الله عنه - أفضل الأولياء المتوكلين بعد الأنبياء . وكان عامتهم يرزقهم الله بأسباب يفعلونها ، كان الصديق تاجراً ، وكان يأخذ ما يحصل له من المغنم ، ولما ولي الخلافة جعل له من بيت المال كل يوم درهمان ، وقد أخرج ماله كله ، وقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : « مَا تَرَكْتَ لِأَهْلِكَ ؟ » قال : « تركت لهم الله ورسوله »^(٢) ومع هذا فما كان يأخذ من أحد شيئاً ، لاصدقة ، ولا فتوحاً ، ولا نذراً ، بل إنما كان يعيش من كسبه .

بخلاف من يدعى التوكل ويخرج ماله كله ظاناً أنه يقتدى بالصديق ، وهو يأخذ من الناس ، إما بمسألة وإما بغير مسألة ، فإن هذه ليست حال أبي بكر الصديق ، بل في (المسند) : « إِنَّ الصَّدِيقَ كَانَ إِذَا وَقَعَ مِنْ يَدِهِ سَوْطٌ يَنْزِلُ فَيَأْخُذُهُ وَلَا يَقُولُ لِأَحَدٍ : نَاوِلْنِي إِيَّاهُ وَيَقُولُ : إِنَّ خَلِيلِي أَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئاً »^(٣) فأين هذا ممن جعل الكدية^(٤) وسؤال الناس طريقاً إلى الله ؟ حتى إنهم يأمررون المريد بالمسألة للخلق .

(١) هو عبد الله بن أبي قحافة : عثمان بن عامر ، من سادات قريش وأغناها وأعلمها ، أول من آمن من الرجال ، وأول الخلفاء الراشدين ، بذل الأموال وحضر الوقائع وحارب المرتدين ، ورفيق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الهجرة ، وصدقه حين كذبه الناس ، له في كتب الحديث ٥٣٧ حديثاً ، ولد بمكة (٥١ ق هـ / ٥٧٣ م) وتوفي بالمدينة (١٣ هـ / ٦٣٤ م) [انظر في ترجمته : طبقات ابن سعد ٢٦/٩ - ٢٨ ، وصفة الصفوة ٨٨/١ ، وحلية الأولياء ٩٣/٤ ، ومنهاج السنة ١١٨/٣ ، وغيرها] الأعلام للزركلي ج ١٠٢/٤ .

(٢) رواه الدارمي ، وأبو داود ، والترمذي في : كتاب مناقب أبي بكر الصديق برقم ٣٧٥٧ ، ولفظ الحديث : « مَا أَتَيْتُ لِأَهْلِكَ » قال الترمذي : حديث حسن صحيح . وقال الألباني في تخریج أحاديث (مشكاة المصابيح) : إسناده حسن وقد أخرجه أيضاً الشاشي وابن أبي عاصم وابن شاهين في السنة ، والحاكم وغيرهم ، وهو في (كنز العمال) برقم ٣٥٦١١ ج ٤٩١/١٢ .

(٣) رواه أحمد عن ابن مليكة ، وقال الحافظ ابن حجر في (الأطراف) : هذا منقطع . (انظر كنز العمال) حديث رقم ١٧١١٣ ج ٦١٩/٦ .

(٤) الكدية : حرفة السائل الملح يقال : أكدى الناس إذا سألهم إلحافاً وألح عليهم .

وقد تواترت الأحاديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بتحريم مسألة الناس ، إلا عند الضرورة وقال : « لَا تَجُلُ الْمَسْأَلَةُ إِلَّا لِيَذَى غُرْمٍ مُقْطِعٌ ، أَوْ دَمٌ مُوجِعٌ ، أَوْ فَقْرٌ مُدْقِعٌ » ^(١) وقال - تعالى - : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۚ ﴾ ^(٢) فأمره أن تكون رغبته إلى الله وحده .

ومن هؤلاء من يجعل دعاء الله ومسأله نقصا ، وهو مع ذلك يسأل الناس ويكديهم ، وسؤال العبد لربه حاجته من أفضل العبادات ، وهو طريق أنبياء الله ، وقد أمر العباد بسؤاله . فقال : ﴿ وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ ﴾ ^(٣) ومدح الذين يدعون ربهم رغبة ورهبة ومن الدعاء ما هو فرض على كل مسلم . كالدعاء المذكور في فاتحة الكتاب .

ومن هؤلاء من يحتج بما يروى عن الخليل أنه لما ألقى في النار قال له جبرئيل : هل لك من حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، قال : سل ، قال : حسبي من سؤالى علمه بحالى ^(٤) ، وأول هذا الحديث معروف ، وهو قوله : « أما إليك فلا » .

وقد ثبت في صحيح البخارى عن ابن عباس ^(٥) - رضى الله عنهما - فى قوله :

(١) رواه أحمد (١١٤/٣) وأبو داود (١٦٤١) وابن ماجه (٢١٥٠) عن أنس مرفوعا ، وقد ضعفه الألبانى فى (إرواء الغليل) رقم ٨٦٧ ج ٣/٣٧٠ قال : قال الترمذى : (حديث حسن) ولكن فيه عبدالله الحنفى ، هو (أبو بكر الحنفى) قال الحافظ فى (التقريب) : لا يعرف حاله . وقال فى (التخليص ٢٣٧) : (وأعله القطان . يجمل حال أبى بكر الحنفى ونقل عن البخارى أنه قال : لا يصح حديثه) .

(٢) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الشرح .

(٣) جزء من الآية ٣٢ من سورة النساء .

(٤) وردت هذه القصة دون إسناد فى بعض كتب التاريخ والسير والتفسير ، حتى إن ابن كثير حين تطرق إليها فى (البداية والنهاية) ١/١٣٨ قال : (وذكر بعض السلف : فذكرها ولم يعلق عليها ، وكذلك فعل فى تفسيره للآيتين ٦٩ ، ٧٠ من سورة الأنبياء ، انظر (تفسير القرآن العظيم) ج ٤/٥٧٢ .

(٥) هو أبو العباس : عبدالله بن عباس بن عبد المطلب القرشى الهاشمى ، حبر الأمة وترجمان القرآن ، لازم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فروى عنه الأحاديث الصحيحة التى بلغت ١٦٦٠ حديثا فى الصحيحين وغيرهما .. ولد بمكة (٣ ق هـ/٦١٩ م) وتوفى بالطائف (٦٨ هـ/٦٨٧ م) [انظر ترجمته فى : الإصابة ٤٧٧٢ ، وصفة الصفوة ١/٣١٤ ، وحلية الأولياء ١/٣١٤] الأعلام للزركلى ج ٤/٩٥ .

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أنه قالها إبراهيم حين ألقى في النار ، وقالها محمد - صلى الله عليه وسلم - حين قال له الناس : ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾^(١).

وأما قوله : حسبي من سؤالي علمه بحالى فكلام باطل ، خلاف ما ذكره الله عن إبراهيم الخليل وغيره من الأنبياء من دعائهم لله ومسالمتهم إياه ، وهو خلاف ما أمر الله به عبادة من سؤلهم له صلاح الدنيا والآخرة . كقولهم ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ودعاء الله وسؤاله والتوكل عليه عبادة لله مشروعة بأسباب كما يقدر بها ، فكيف يكون مجرد العلم مسقطا لما خلقه وأمر به ؟ والله أعلم . وصلى الله على محمد وسلم .

(١) قال البخارى : حدثنا أحمد بن يونس أراه قال . حدثنا أبو بكر ، عن أبي الحصين ، عن أبي الضحى عن ابن عباس : فذكره . قال ابن كثير ١٦١/٢ في تفسيره للآية ١٧٣ من سورة آل عمران : وقد رواه النسائي عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ، وهارون بن عبد الله : كلاهما عن يحيى بن أبي بكر عن أبي بكر وهو ابن عياض به . ثم قال ابن كثير : والعجب أن الحاكم أبا عبد الله رواه من حديث أحمد بن يونس به ثم قال : صحيح الإسناد على شرط التبيين ولم يخرجاه . ثم رواه البخارى عن أبي غسان مالك بن إسماعيل عن إسرائيل عن أبي الحصين عن أبي الضحى عن ابن عباس جزء من الآية ٢٠١ من سورة البقرة .

الفتوى الثانية (٥٤٠ - ٨/٥٤١) .

سئل شيخ الإسلام :

عن الرزق : هل يزيد أو ينقص ؟ وهل هو ما أكل أو مملكه العبد ؟

فأجاب :

الرزق نوعان :

(أحدهما) : ما علمه الله أنه يرزقه ، فهذا لا يتغير .

و(الثاني) ما كتبه الله وأعلم به الملائكة فهذا يزيد وينقص بحسب الأسباب ، فإن العبد يأمر الله الملائكة أن تكتب له رزقا ، وإن وصل رحمه زاده الله على ذلك ، كما ثبت في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ ^(١) فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » ^(٢) ، وكذلك عمر داود زاد ستين سنة ، فجعله الله مائة سنة بعد أن كان أربعين ^(٣) ، ومن هذا الباب قول عمر ^(٤) : اللهم إن كنتَ كَتَبْتَ شَقِيًّا فَأَمَحْنِي وَاكْتَبَنِي سَعِيدًا ؛ فَإِنَّكَ تَمَحُو مَا تَشَاءُ وَتُثَبِّتُ ^(٥) .

(١) ينسأ له في أثره ، أى: يؤخر له في بقية عمره ، أو المعنى بقاء ذكره الجميل بعد الموت .

(٢) متفق عليه من حديث أنس ، وأخرجه البخارى من حديث أبى هريرة ، والحاكم (١٦٠/٤) من حديث على وابن عباس ، وروى نحوه أحمد وأبو داود والنسائى عن أنس ، وهو فى (صحيح الجامع الصغير) للألبانى بقم ٦٢٩١ ج ١٠٧٨/٢ .

(٣) رواه الترمذى (١٨١/٢) وقال : حديث حسن صحيح ، وقد روى من غير وجه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ورواه الحاكم (٥٨٥/٢ - ٥٨٦) فى مستدركه من حديث أبى نعيم الفضل ، وقال : (صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه) ، وحسنه الألبانى فى (مشكاة المصابيح) رقم ١١٨ ج ٤٢/١ قال : سنده حسن وصححه الحاكم .

(٤) هو أبو حفص أمير المؤمنين : عمر بن الخطاب بن نفيل القرشى العدوى (٤٠ ق هـ/ ٥٨٤ م - ٢٣ هـ/ ٦٤٤ م) ثانى الخلفاء الراشدين ، يضرب بعدله المثل . أعز الله به الإسلام ، وتم فى عهده فتح الشام والعراق والقدس ومصر وسائر الجزيرة ، كان حازما مجتهدا ، له فى كتب الحديث ٥٣٧ حديثا [انظر فى ترجمته : الطبرى ١٨٧/١ - ٢١٧ و ٨٢-٢/٢ ، والإصابة ٧٥٣٨ ، وصفة الصفوة ١٠١/١ ، وحلية الأولياء ٣٨/١] الأعلام للزركلى ج ٤٦/٥

(٥) رواه عبد بن حميد ، وابن جرير وابن المنذر ، وهو فى (كنز العمال) حديث رقم ٥٠٣٧ ج ٦٧٤/٢ .

ومن هذا الباب قوله - تعالى - عن نوح : ﴿ أَنْ أَعْبُدَ وَاللَّهُ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُونَ ۝٢٠ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۝٢١ ﴾ ^(١) وشواهد كثيرة :

والأسباب التي يحصل بها الرزق هي من جملة ما قدره الله وكتبه ، فإن كان قد تقدم بأنه يرزق العبد بسعيه واكتسابه ألهمه السعي والاكتساب ، وذلك الذي قدره له بالاكتساب لا يحصل بدون الاكتساب ، وما قدره له بغير اكتساب : كموت مورثه يأتيه به بغير اكتساب . والسعي سعيان : سعى فيما نصب للرزق ، كالصناعة والزراعة والتجارة ، وسعى بالدعاء والتوكل والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك ، فإن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

فصل

والرزق يراد به شيئان :

(أحدهما) : ما ينتفع به العبد .

و(الثاني) : ما يملكه العبد .

فهذا الثاني هو المذكور في قوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٢٢ ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ ۝٢٣ ﴾ ^(٣) وهذا هو الحلال الذي ملكه الله إياه . وأما الأول : فهو المذكور في قوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٢٢ ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ ۝٢٣ ﴾ ^(٣) وهذا هو الحلال الذي ملكه الله إياه .

(١) الآية ٣ وجزء من الآية ٤ من سورة نوح .
(٢) وردت في القرآن الكريم ست مرات : في الآيات : ٣ (البقرة) و ٣ (الأنفال) و ٣٥ (الحج) و ٥٤ (القصص) و ١٦ (السجدة) و ٣٨ (الشورى) .
(٣) جزء من الآية ١٠ من سورة المائدة .

رَزَقَهَا^(١) وقوله - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رَزَقَهَا »^(٢) ونحو ذلك .

والعبد قد يأكل الحلال والحرام فهو رزق بهذا الاعتبار ، لا بالاعتبار الثانى ، وما اكتسبه ولم ينتفع به هو رزق بالاعتبار الثانى دون الأول ؛ فإن هذا فى الحقيقة مال وارثه لا ماله ، والله أعلم .

(١) جزء من الآية ٦ من سورة هود .

(٢) رواه ابن ماجه عن جابر بن عبد الله (كتاب التجارات : باب الاقتصاد فى طلب المعيشة) ، وصححه الألبانى فى (صحيح سنن ابن ماجه) برقم ١٧٤٣ ج ٢/٦ وطرف الحديث : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَهْلُوا فِي الطَّلَبِ ؛ فَإِنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رَزَقَهَا » . ورواه البيهقى لى (شعب الإيمان) كذلك ... وانظر (مشكاة المصابيح) للثيريزى بتحقيق الألبانى حديث رقم ٥٣٠٠ ج ١٤٥٨/٣ . ورواه ابن الجارود عن جابر والحكيم عن حذيفة وعن ابن مسعود ، والمسكوى فى (الأمثال) عن ابن مسعود ، والطبرانى عن أبى أمامة ، والحاكم عن جابر والنسائى عن ابن مسعود ، وأبو نعيم فى (الحلية) عن أبى أمامة ، وانظر (كنز العمال) الأحاديث : ٩٢٨٩ و ٩٢٩٠ و ٩٣٠٨ و ٩٣٠٩ و ٩٣١٠ و ٩٣١١ و ٩٣١٢ و ٩٣١٤ و ٩٣١٥ و ٩٣١٦ و ٩٣١٧ فى الجزء الرابع منه .

الفتوى الثالثة (٥٤٢ - ٨/٥٤٤) :

سئل شيخ الإسلام ، مفتى الأنام ، أوجد عصره ، فريد دهره : تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية - رحمه الله ورضي عنه - عن الرجل : إذا قطع الطريق وسرق أو أكل الحرام ونحو ذلك ، هل هو رزقه الذى ضمنه الله - تعالى - له أم لا ؟ أفوتونا مأجورين .

فأجاب :

الحمد لله :

ليس هذا هو الرزق الذى أباحه الله له ، ولا يجب ذلك ولا يرضاه ، ولا أمره ان يتفق منه كقوله - تعالى - : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ^(١) وكقوله - تعالى - : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ^(٢) ونحو ذلك لم يدخل فيه الحرام ، بل من أنفق من الحرام ، فإن الله - تعالى - يذمه ويستحق بذلك العقاب فى الدنيا والآخرة بحسب دينه . وقد قال الله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ ^(٣) وهذا أكل المال بالباطل .

ولكن هذا الرزق الذى سبق به علم الله وقدره ، كما فى الحديث الصحيح عن ابن مسعود ^(٤) عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « يُجْمَعُ خَلْقُ أَحَدِكُمْ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً نَظْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَتَعَثَّ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ

(١) وردت فى القرآن الكريم ست مرات : انظر الهامش رقم ١ ص ٢٦ .

(٢) جزء من الآية ١٠ من سورة المنافقون .

(٣) جزء من الآية ١٨٨ من سورة البقرة .

(٤) هو أبو عبد الرحمن : عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلى ، من أكابر الصحابة - رضوان الله عليهم - ومن أسبقهم إلى الإسلام ، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة . خدم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحبه فى حله وترحاله ، قيل فيه : إنه وعاء ملء علماً ، وشهدوا له بالفضل والعقل ، له فى كتب الحديث ٨٤٨ حديثاً ، وتوفى بالمدينة سنة (٣٢ هـ / ٦٥٣ م) [انظر ترجمته فى : الإصابة ٤٩٥٥ ، وصفة الصفوة ١٥٤/١ ، وحلية الأولياء ١٢٤/١] الأعلام للزركلى ص ١٣٧/٤

وَعَمَلُهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ^(١) فكما أن الله كتب ما يعمل به من خير وشر ، وهو يثيبه على الخير ويعاقبه على الشر فكذلك كتب ما يرزقه من حلال وحرام ، مع أنه يعاقبه على الرزق الحرام .

ولهذا كل مافي الوجود واقع بمشيئة الله وقدره كما تقع سائر الأعمال ، لكن لا عذر لأحد بالقدر ، بل القدر يؤمن به ، وليس لأحد أن يحتج على الله بالقدر ، بل لله الحجة البالغة ، ومن احتج بالقدر على ركوب المعاصي ، فحجته داحضة ، ومن اعتذر به فعذره غير مقبول ، كالذين قالوا : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا﴾ ^(٢) والذين قالوا : ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ ^(٣) كما قال - تعالى - : ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ ^(٤) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ^(٥) .

وأما الرزق الذي ضمنه الله لعباده ، فهو قد ضمن لمن يتقيه أن يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، وأما من ليس من المتقين فضمن له ما يناسبه ، بأن يمنحه ما يعيش به في الدنيا ، ثم يعاقبه في الآخرة ، كما قال تعالى الخليل : ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّرَاةِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قال تعالى ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُئْسَرُ الْمَصِيرُ﴾ ^(٥)

والله إنما أباح الرزق لمن يستعين به على طاعته ، لم ييحه لمن يستعين به على معصيته ، بل هؤلاء وإن أكلوا ماضيه لهم من الرزق فإنه يعاقبهم ، كما قال : ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُئْسَرُ

(١) أخرجه البخارى (٢٠٨/٢ ، ٣٣٢ - ٣٣٣ و ٢٥١/٤) ، ومسلم (٤٤/٨) ، وأبو داود (٤٧٠٨) ، والترمذى (١٩/٢ ، ٢٠) وابن ماجه (٧٦) ، وأحمد (٣٨٢/١ ، ٤٣٠) وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . وقد ذكره الألبانى في (صحيح الجامع الصغير) برقم ١٥٥٣ ج ١/٣٢١ وفى (إرواء الغليل) برقم ٢١٤٣ ج ١/٢١٦ .
(٢) جزء من الآية : ١٤٨ من سورة الأنعام .
(٣) جزء من الآية ٢٠ من سورة الزخرف .
(٤) الآيتان ٥٦ ، ٥٧ من سورة الزمر .
(٥) جزء من الآية ١٢٦ من سورة البقرة

﴿^(١) وَقَالَ - تعالى - : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مَحَلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ ^(٢) فَإِنَّمَا أَبَاحَ الْأَنْعَامَ لِمَنْ يَحْرُمُ عَلَيْهِ الصَّيْدُ فِي الْإِحْرَامِ .

وقال - تعالى - : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ^(٣) فكما أن كل حيوان يأكل ما قدر له من الرزق ، فإنه يعاقب على أخذ ما لم يباح له ، سواء كان محرم الجنس ، أو كان مستعينا به على معصية الله ، ولهذا كانت أموال الكفار غير مفسوبة . بل مباحة للمؤمنين .. وتسمى فيأ إذا عادت إلى المؤمنين ، لأن الأموال إنما يستحقها من يطيع الله لا من يعصيه بها ، فالمؤمنون يأخذونها بحكم الاستحقاق ، والكفار يعتدون في إنفاقها ، كما أنهم يعتدون في أعمالهم ، فإذا عادت إلى المؤمنين فقد فاءت إليهم كما يفىء المال إلى مستحقه .

* وقال - رحمه الله - في موضع آخر في فتواه على سؤال أبي القاسم المغربي المعروفة باسم (الوصية الصغرى) [٦٦٢ ، ٦٦٣ / ١٠] :

وأما أرجح المكاسب : فالتوكل على الله ، والثقة بكفايته ، وحسن الظن به ، وذلك أنه ينبغي للمهم بأمر الرزق أن يلجأ فيه إلى الله ويدعوه ، كما قال - سبحانه - فيما يأثر عنه نبيه : « كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعَمَكُمْ ، يَا عِبَادِي ! كُلُّكُمْ غَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أُكْسَكُمْ » ^(٤) وفيما رواه الترمذي ^(٥) عن أنس ^(٦) - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله

(١) جزء من الآية ١٢٦ من سورة البقرة .

(٢) جزء من الآية الأولى من سورة المائدة .

(٣) جزء من الآية ٩٣ من سورة المائدة .

(٤) سنأى تخريجه .

(٥) سبق الترجمة

(٦) سنأى الترجمة .

- صلى الله عليه وسلم - : « لَيْسَ أَلْأَحَدُكُمْ رَبُّهُ حَاجَتُهُ كُلُّهَا حَتَّى شَيْعَ نَفْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ ؛ فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يُسَرِّهْ لَمْ يَتَيَسَّرْ » ^(١) .

وقد قال الله - تعالى - في كتابه : ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ^(٢) وقال - سبحانه - : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ ^(٣) وهذا وإن كان في الجمعة فمعناه قائم في جميع الصلوات . ولهذا - والله أعلم - أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - الذى يدخل المسجد أن يقول : « اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ » ^(٤) . وإذا خرج أن يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ » ^(٥) . وقد قال الخليل - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ ^(٦) وهذا أمر ، والأمر يقضى بالإيجاب ، فلا استعانة بالله واللجوء إليه في أمر الرزق وغيره أصل عظيم .

ثم ينبغى له أن يأخذ المال بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ لِيَبَارَكَ لَهُ فِيهِ ، ولا يأخذه بإشراف وهلع ، بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذى يحتاج إليه من غير أن يكون له في القلب مكانة ، والسعى فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء . وفي الحديث المرفوع الذى رواه الترمذى ^(٧) وغيره : « مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ ، شَتَّتَ اللَّهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضِيعَتَهُ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كَتَبَ لَهُ ، وَمَنْ أَصْبَحَ

(١) حديث ضعيف أخرجه الترمذى في (الدعوات) (٢٩٢/٤) ، وابن حبان (٢٤٠٢) وغيرهما .. وقال الترمذى : هذا حديث غريب . وقد ضعفه الألبانى ، فانظر تحريجه له في (سلسلة الأحاديث الضعيفة) حديث رقم ١٣٦٢ ج ٣/٥٣٧ - ٥٤١ .

(٢) جزء من الآية ٣٢ من سورة النساء .

(٣) جزء من الآية ١٠ من سورة الجمعة .

(٤) رواه مسلم (٢٢٤/٥) ، وأبو داود (٣١٨/١) ، وابن ماجه (٧٧٢) ، والنسائى (٥٣/٢) ، وذكره صاحب (الصدحيح) للسند من أذكار اليوم والليلة) ص ٤٥ وقال : حديث صحيح ، وصححه الألبانى في (صحيح سنن ابن ماجه) الأحاديث أرقام ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ج ١/١٢٩

(٥) حديث صحيح : رواه ابن ماجه (٧٧٢) وهو برقم ٦٢٦ في (صحيح سنن ابن ماجه) للألبانى ، وهو عند أبى داود وابن ماجه والنسائى تنمة الحديث السابق .

(٦) جزء من الآية ١٧ من سورة العنكبوت .

(٧) سبقت ترجمته .

وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ ، جَمَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا
وَهِيَ رَاغِمَةٌ ^(١) .

وقال بعض السلف : أنت محتاج إلى الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة
أجوج ، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مر على نصيبك من الدنيا فانتظمه
انتظاما . قال الله - تعالى - : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ
﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴾ ^(٥٧) . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ
الْمَتِينِ ﴿٥٨﴾ ^(٢) .

فأما تعيين مكسب على مكسب من صناعة أو تجارة أو بناية أو حراثة أو غير
ذلك ؛ فهذا يختلف باختلاف الناس ، ولا أعلم في ذلك شيئا عاما ، لكن إذا عُنَّ
للإنسان جهة فليستخر الله - تعالى - فيها الاستخارة المتلقاة عن معلم الخير
- صلى الله عليه وسلم - فإن فيها من البركة ما لا يحاط به . ثم ماتيسر له فلا
يتكلف غيره ، إلا أن يكون منه كراهة شرعية .

(١) رواه الترمذی عن أنس (٧٦/٢) وطرفه : « من كانت الآخرة هم جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله
وأنته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا هم ... » الحديث صححه الألبانی في (صحيح الجامع الصغير)
برقم ٦٥١٠ ج ١١١٠/٢ . وأخرج ابن ماجه (٥٢٤/٢ ، ٥٢٥) وابن حبان (٧٢) عن زيد بن
نابت : « من كانت الدنيا هم فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ،
ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة » وهو أشبه لفظا بما
ذكره ابن تيمية - رحمه الله - هنا ، وقد صححه الألبانی وأورده في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) رقم
٩٥٠ ج ٥٤٨/٢ .

(٢) الآيات ٥٦ - ٥٨ من سورة الذاريات .

ثانيا : فى إثبات الأسباب

* الفتوى الأولى (٢٥٥ - ١٠/٢٦٢) :

سئل شيخ الإسلام - رحمه الله - عن دعوة ذى النون - عليه السلام - : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١) لم كانت كاشفة للكرب ؟ فكان من جوابه :

وأما قول السائل : لم كانت موجبة لكشف الضر ؟ فذلك لأن الضر لا يكشفه إلا الله . كما قال تعالى - : ﴿وَلِإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبَ فَلَاكَ أَشْفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَلِإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾^(٢) والذنوب سبب للضر ، والاستغفار يزيل أسبابه كما قال - تعالى - : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(٣) فأخبر أنه - سبحانه - لا يعذب مستغفرا . وفى الحديث : « مَنْ أَكْثَرَ الاستِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ قَرَجًا ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾^(٤) وقال - تعالى - : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٥)

(١) من الآية : ٨٧ من سورة الأنبياء :

(٢) جزء من الآية ١٠٧ من سورة يونس .

(٣) الآية ٣٣ من سورة الأنفال .

(٤) رواه أبو داود (١٥١٨) ، والنسائي فى (عمل اليوم والليلة) ، والحاكم (٢٦٢/٤) ، وأحمد (٢٤٨/١) ، والبيهقى (٣٥١/٣) ، والطبرانى (١/٩٢/٣) ، وابن عساكر (١/٢٩٦/٤) وغيرهم .. رَوَاهُ عَنْ الْحَكَمِ بْنِ مُصْعَبٍ .. قَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي (سلسلة الأحاديث الضعيفة) رقم ٧٠٥ ج ٢/١٤٢ : وسنده ضعيف ، الحكم بن مصعب مجهول كما قال الحافظ فى (التقريب) . فالحديث ضعيف ، وكثيرا ما يروى بلفظ « من لزم الاستغفار » فى أوله .

(٥) الآية ٣٠ من سورة الشورى .

فقله : ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١) اعتراف بالذنب وهو استغفار ،
فان هذا الاعتراف متضمن طلب المغفرة .

وقوله : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾^(٢) تحقيق لتوحيد الإلهية ، فإن الخير لا موجب له
إلا مشيئة الله ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، والمعوق له من العبد هو ذنوبه ،
وما كان خارجا عن قدرة العبد فهو من الله ، وإن كانت أفعال العباد بقدر الله -
تعالى - لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحذور سببا للنجاة ، فشهادة التوحيد
تفتح باب الخير ، والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر .

ولهذا ينبغي للعبد أن لا يعلق رجاءه إلا بالله ولا يخاف من الله أن يظلمه ؛ فإن
الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، بل يخاف أن يجزيه بذنوبه ،
وهذا معنى ماروى عن علي^(٣) - رضى الله عنه - أنه قال : لَا يَرْجُوَنَّ عَبْدٌ إِلَّا
رَبَّهُ ، وَلَا يَخَافَنَّ إِلَّا ذَنْبَهُ .

وفي الحديث المرفوع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه دخل على مريض
فقال : « كَيْفَ تَجِدُكَ ؟ » فقال : أرجو الله وأخاف ذنوبى ، فقال : « مَا
اجْتَمَعَ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا
يَخَافُ »^(٤) .

فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق ، ولا بقوة العبد ولا عمله ، فإن

(١) جزء من الآية ٨٧ من سورة الأنبياء .

(٢) أبو الحسن : على بن أبى طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي : ابن عم النبي - صلى الله عليه وسلم -
وصهره : أمير المؤمنين ، رابع الخلفاء الراشدين ، وأحد المبشرين بالجنة ، الخطيب البارع ، البطل الشجاع ،
وأول الناس إسلاما بعد خديجة ولما آخى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين أصحابه قال له : أنت أخى ؛
(فيما رواه الترمذى وإن ضعفه الألبانى) ، كان قدره حين تولى الخلافة أن يواجه فتنة مقتل عثمان ، وخروج
معاوية عن طاعته ، وخروج الخوارج الذين قتله أحدهم ، عاش قرابة ٦٣ سنة من (٢٣ ق . هـ / ٦٠٠ م)
إلى (٤٠ - ٦٦١ م) ، له في كتب الحديث ٥٨٦ حديثا [انظر ترجمته في : الطبري ٨٣ / ٦ ، وصفة
الصفوة ١١٨ / ١ ، وحيلة الأولياء ٦١ / ١ ، ومنهاج السنة ٢ / ٢٣ ، وما بعدها ، ثم ٢ / ٤ إلى آخر الكتاب
والإصابة ٥٦٩٠] الأعلام للزركلى ٢٩٥ / ٤ .

(٣) رواه البيهقي في (شعب الإيمان) مرسلا عن سعيد بن المسيب ، وفيه ان المريض كان عمر بن الخطاب -
رضى الله عنه - . انظر (كنز العمال) : ٥٨٦٨ ج ٣ / ١٤٠ و ٨٥٢٧ ح ٣ / ٧٠٨ .

تعليق الرجاء بغير الله إشراك ، وإن كان الله قد جعل لها أسبابا فالسبب لا يستقل بنفسه ، بل لابد له من معاون ، ولابد أن يمنع المعارض المعوق له وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى .

ولهذا قيل : الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب ان تكون أسبابا نقص في العقل ؟ والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ولهذا قال - تعالى - : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۚ ﴾ ^(١) فأمر بأن تكون الرغبة إليه وحده ، وقال : ﴿ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا ۚ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ ﴾ ^(٢) فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه ، فمن رجا قوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله غير ناظر إلى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب ، وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فانه مشرك : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ۚ ﴾ ^(٣) .

وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ، ويرجوهم ، فيحصل له رعب كما قال - تعالى - : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۚ ﴾ ^(٤) والخالص من الشرك يحصل له الأمن كما قال - تعالى - ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ۚ ﴾ ^(٥) وقد فسر النبي - الله صلى الله عليه وسلم - الظلم هنا بالشرك ففي الصحيح عن ابن مسعود ^٦ : « أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على

(١) الآيتان : ٧ ، ٨ من سورة الشرح .

(٢) جزء من الآية ٢٣ من سورة المائدة .

(٣) جزء من الآية : ٣١ من سورة الحج

(٤) جزء من الآية : ١٥١ من سورة آل عمران

(٥) الآية : ٨٢ من سورة الأنعام .

(٦) سبقت الترجمة .

أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وقالوا : أئنا لم نَظْلِمَ نَفْسَهُ ؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « إئنا هذا الشُّركُ »^(١) ، ألم تسمِعُوا إِلَى قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾^(٢) .

وقال - تعالى - : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾^(٣) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوَآئِكَ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾^(٤) وقال - تعالى - : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾^(٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٤﴾ ولهذا يذكر الله الأسباب ، و يأمر بأن لا يعتمد عليها ، ولا يرجى إلا الله ، قال - تعالى - لما أنزل الملائكة : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾^(٥) وقال : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ

(١) رواه البخارى عن عبد الله ، ورواه أحمد عنه ، وفي روايته : « إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : « يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم إئنا هو الشرك » ورواه ابن أبى حاتم عن عبد الله كذلك ، وفي روايته « ليس كما تظنون ، إئنا قال لابنه (الآية) » وهو فى (مشكاة المصابيح) للتبريزى بتحقيق الألبانى رقم ٥١٣١ (١٤١٩/٣) وقال : متفق عليه .

(٢) جزء من الآية : ١٣ من سورة لقمان

(٣) الآيات : ١٦٥ - ١٦٧ من سورة البقرة .

(٤) الآيتان : ٥٦ ، ٥٧ من سورة الإسراء .

(٥) الآية : ١٢٦ من سورة آل عمران .

فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

وقد قدمنا أن الدعاء نوعان :

دعاء عبادة ، ودعاء مسألة .

وكلاهما لا يصلح إلا لله فمن جعل مع الله لها آخر قعد مذموماً مخذولاً ، والراجي سائل طالب فلا يصلح أن يرجو إلا الله ، ولا يسأل غيره ، ولهذا قال النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح : « مَا أَتَاكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ سَائِلٍ وَلَا مُشْرِفٍ فَخُذْهُ ، وَمَالًا فَلَا تُثْبِغُهُ نَفْسَكَ » (١) فالمشرف الذي يستشرف بقلبه ، والسائل الذي يسأل بلسانه ، وفي الحديث الذي في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري (٢) : قال : أصابتنا فاقة فجئت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأسأله فوجدته يخطب الناس وهو يقول : « أَيُّهَا النَّاسُ وَاللَّهِ مَهْمَا يَكُنْ عِنْدَنَا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ نُدْخِرَهُ عَنْكُمْ ، وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفِهِ اللَّهُ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ » (٣) .

و(الاستغناء) : أن لا يرجو بقلبه أحداً فيستشرف إليه ، و(الاستغفار) أن لا يسأل بلسانه أحداً ، ولهذا لما سئل أحمد بن حنبل (٤) عن التوكل فقال : قطع الاستشراف إلى الخلق ، أي : لا يكون في قلبك أن أحداً يأتيك بشيء ، فقليل

(١) الآية ١٦٠ من سورة آل عمران .

(٢) رواه النسائي عن عمر ، وصححه الألباني في (صحيح الجامع الصغير) رقم ٥٥٠٤ (٢/٩٦٦) .

(٣) هو أبو سعيد : سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري الخزرجي . صحابي من ملازمي الرسول

- صلى الله عليه وسلم - غزاه اثنتي عشرة غزوة ، وله ١١٧٠ حديثاً ، ولد وتوفي بالمدينة المنورة (١٠ ق .

هـ / ٦١٣ م - ٧٤ هـ / ٦٩٣ م) انظر ترجمته في تهذيب التهذيب ٤٧٩/٣ وصفه الصفوة ٢٩٩/١ وحلية الأولياء

٣٦٩/١ [الأعلام للزركلي ٨٧/٣ .

(٤) متفق عليه .. رواه البخاري في (كتاب الرقاق) ٢٠ ، وفي (كتاب الزكاة) ١٨ ، ٥٠ ، ورواه مسلم

في (كتاب الزكاة) ١٢٤ ، وأبو داود في (الزكاة) ٢٨ ، والترمذي (كتاب البر) ٧٦ حديث رقم ٢١١٠ ،

والنسائي . (كتاب الزكاة) ٨٥ ، ٨٩ وأورده الألباني في (صحيح سنن الترمذي) رقم ١٦٤٧ ج ١٩٨/٢

(٥) سبقت الترجمة .

له : فما الحجة في ذلك ؟ فقال : قول الخليل لما قال له جبرائيل : هل لك من حاجة ؟ فقال : « أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا » ^(١) .

فهذا وما يشبهه مما يبين أن العبد في طلب ما ينفعه ودفع ما يضره لا يوجه قلبه إلا إلى الله ، فلهذا قال المكروب : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ﴾ ^(٢) ومثل هذا ما في الصحيحين عن ابن عباس ^(٣) أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يقول عند الكرب : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ » ^(٤) فإن هذه الكلمات فيها تحقيق التوحيد ، وتألله العبد ربه ، وتعلق رجائه به وحده لا شريك له ، وهي لفظ خبر يتضمن الطلب .

والناس وإن كانوا يقولون بألسنتهم : لا إله إلا الله ، فقول العبد لها مخلصا من قلبه له حقيقة أخرى ، وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله قال - تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤ ﴾ ^(٥) فمن جعل ما يألوه هو ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه ، أى : جعل معبوده هو ما يهواه ، وهذا حال المشركين الذين يعبد أحدهم ما يستحسنه ، فهم يتخذون أندادا من دون الله يحبونهم كحب الله ، ولهذا قال الخليل ^(٦) : ﴿ لَا أُحِبُّ إِلَّا فَلِينَ ﴾ ^(٧) .

فإن قومه لم يكونوا منكرين للصانع ، ولكن كان أحدهم يعبد ما يستحسنه ويظنه نافعا له كالشمس والقمر والكواكب ، والخليل بين أن الآفل يغيب عن

(١) سبق تخريجه . (٦) أبو الأنبياء : - إبراهيم - عليه السلام -

(٢) جزء من الآية ٨٧ من سورة الأنبياء (٧) جزء من الآية : ٧٦ من سورة الأنعام .

(٣) سبقت الترجمة

(٤) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - وهو فى (مشكاة المصابيح) للتبريزى برقم

٢٤١٧ ج ٢ / ٧٤٨ ، وفى (شرح العقيدة الطحاوية) برقم ٢٩٣ (٢٧٧) .

(٥) الايتان ٤٣ و ٤٤ من سورة الفرقان .

عابده وتحجبه عنه الحواجب فلا يرى عابده ولا يسمع كلامه ولا يعلم حاله ولا ينفعه ولا يضره بسبب ولا غيره ، فأى وجه لعبادة من يأفل ؟!

وكلما حقق العبد الإخلاص فى قوله : لا إله إلا الله خرج من قلبه تأله ما يهواه ، وتصرف عنه المعاصى والذنوب كما قال - تعالى . ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾^(١) فعلى صرف السوء والفحشاء عنه بانه من عباد الله المخلصين ، وهؤلاء هم الذين قال فيهم : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾^(٢) وقال الشيطان : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(٣) ۞ ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴾^(٤) وقد ثبت فى الصحيح عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصاً مِنْ قَلْبِهِ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ »^(٥)

فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار ، فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله لم يحقق إخلاصها المحرّم له على النار ، بل كان فى قلبه نوع من الشرك الذى أوقعه فيما أدخله النار ، والشرك فى هذه الأمة أخفى من ديب القمل^(٥) ، ولهذا كان العبد مأمورا فى كل صلاة أن يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ والشيطان يأمر بالشرك ، والنفس تطيعه فى ذلك ، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله ؛ إما خوفا منه ، وإما رجاء له فلا يزال العبد مفتقرا إلى تخلص توحيدة من

(١) جزء من الآية رقم ٢٤ من سورة يوسف .

(٢) ذكرت مرة فى الآية رقم ٤٢ من سورة الحجر ، ومرة أخرى فى الآية رقم ٦٥ من سورة الإسراء .

(٣) جزء من الآية ٨٢ ، والآية ٨٣ كاملة من سورة ص .

(٤) رواه ابن النجار عن انس بن مالك - رضى الله عنه - ونصه : « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصاً دَخَلَ الْجَنَّةَ » ورواه البزار عن أنس سعيد ، وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) رقم ٦٤٣٣ (١٠٩٨/٢) وهو فى (كنز العمال) رقم ٢٠٣ (٦٠/١) و١٧٧٩ (٤١٨/١) .

(٥) روى الحكيم فى حديث صحيح عن ابن عباس مرفوعا « الشُّرْكُ فى أُمَّتِي أَخْفَى مِنْ دَيْبِ الثَّمَلِ عَلَى الصُّفَا » صححه الألبانى فى (صحيح الجامع) برقم ٣٧٣٠ (٦٩٣/١) ، وروى نحوه الحكيم أيضا عن ابى بكر ، وصححه الألبانى كذلك فى (صحيح الجامع الصغير) برقم ٣٧٣١ (٦٩٤/١) .

شوائب الشرك ، وفي الحديث الذى رواه ابن أبى عاصم^(١) وغيره عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « يقول الشيطان : أهلكت الناس بالذنوب وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك بَشَّثْتُ فيهم الأهواء ، فهم يذنبون ولا يستغفرون ، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »^(٢).

فصاحب الهوى الذى اتبع هواه بغير هدى من الله له نصيب ممن اتخذ إلهه هواه ، فصار فيه شرك منعه من الاستغفار . وأما من حقق التوحيد والاستغفار . فلا بد أن يرفع عنه الشر ، فلهذا قال ذو النون ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

(١) هو أبو بكر بن أبى عاصم : أحمد بن عمرو بن أبى عاصم الضحاك بن مخلد الشيبانى : عالم بالحديث ، زاهد ، رحالة ، من أهل البصرة اشتغل بالقضاء مدة وله تصانيف كثيرة من أشهرها (المسند الكبير) يمتوى على ٥٠ ألف حديث ، وعاش زهاء الثلاثين عاما ما بين (٢٠٦ هـ/ ٨٢٢ م) و(٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م) [انظر ترجمته فى : البداية والنهاية ٨٤/١١ ، وتذكرة الحفاظ ١٩٣/٢] الأعلام للزركلى ١٨٩/١ .

(٢) رواه ابن أبى عاصم فى (السنن) (٩/١) ونقله عنه المنذرى فى (الترغيب والترهيب) (٨٧/١) وأخرجه أبو يعلى فى مسنده (٤٣/١) وقال الألبانى : إسناده موضوع آفته عبد الغفور ، قال البخارى : تركوه ، وقال ابن حبان : كان ممن يضع الحديث ص ١٠ من (السنن) لابن أبى عاصم ، ط المكتب الإسلامى .

(٣) جزء من الآية : ٨٧ من سورة الأنبياء

• الفتوى الثانية (١٣٦ - ١٤١ / ٨) :

وقال - رحمه الله - ضمن جوابه في فتواه الطويلة المعروفة بـ (أقوم ما قيل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل) كلاما في غاية الجودة عن إثبات الأسباب ، قال :

ومن قال : إن قدرة العبد وغيرها من الأسباب التي خلق الله - تعالى - بها المخلوقات ليست أسبابا ، أو أن وجودها كعدمها ، وليس هناك إلا مجرد اقتران عادي كاقتران الدليل بالمذكول ، فقد جحد ما في خلق الله وشرعه من الأسباب والحكم والعلل ، ولم يجعل في العين قوة تمتاز بها عن الخلد تبصر بها ، ولا في القلب قوة يمتاز بها عن الرجل يعقل بها ، ولا في النار قوة تمتاز بها عن التراب تحرق بها ، وهؤلاء ينكرون ما في الأجسام المطبوعة والغرائز .

قال بعض الفضلاء : تكلم قوم من الناس في إبطال الأسباب والقوى والطبائع فأضحكوا العقلاء على عقولهم .

ثم إن هؤلاء يقولون : لا ينبغي للإنسان أن يقول : إنه شيع بالخيز وروى بالماء ، بل يقول : شيعت ورويت عنده ، فإن الله يخلق الشيع والرى ونحو ذلك من الحوادث عند هذه المقترنات بها عادة ، لا بها . وهذا خلاف الكتاب والسنة فإن الله - تعالى - يقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَاهُ إِلَهُامًا فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ^(١) الآية وقال - تعالى - : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ ^(٢)

(١) جزء من الآية : ٥٧ من سورة الأعراف .

(٢) جزء من الآية : ١٦٤ من سورة البقرة .

وقال - تعالى - : ﴿ قَتَلُوهُمْ يَعَذَّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ ^(١) وقال :
 قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ
 اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ
 مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ ^(٣) وقال - تعالى - :
 ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ^(٤)
 وقال - تعالى - : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا
 أَلْوَانُهَا ﴾ ^(٥) وقال - تعالى - : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ
 شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٥﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ
 وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ^(٦) وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ
 لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾ الى قوله : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي
 بِهِ كَثِيرًا ﴾ ^(٧) وقال : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ
 مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ ^(٨)
 ومثل هذا في القرآن كثير .

وكذلك في الحديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - كقوله : « لَا يَمُوتَنَّ
 أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا آذَنْتُمُونِي بِهِ حَتَّى أَصَلَّى عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ بِصَلَاتِي عَلَيْهِ
 بَرَكَاتٍ وَرَحْمَةً » ^(٩) وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ

- (١) جزء من الآية : ١٤ من سورة التوبة .
 (٢) جزء من الآية : ٥٢ من سورة التوبة .
 (٣) جزء من الآية : ٢٧ من سورة فاطر .
 (٤) الآية : ١٠ ، وجزء من الآية : ١١ من سورة النحل .
 (٥) انظر الآية : ٢٦ من سورة البقرة .
 (٦) جزء من الآيتين ، ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة .
 (٧) رواه أحمد (٢٨٨٤) عن يزيد بن ثابت ونصه : « لَا يَمُوتَنَّ لَكُمْ مِيتَ مَا كُنْتَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ إِلَّا
 آذَنْتُمُونِي بِهِ ، فَإِنْ صَلَاتِي عَلَيْهِ رَحْمَةٌ » وهو في (كنز العمال) رقم ٤٢٣٠٣ (١٥ / ٥٨٦) وقد أخرجه عنه
 أيضا النسائي (٢٨٤ / ١) ، وابن ماجه (١٥٢٨) وابن أبي شيبة (١٤٩ / ٤) ، والبيهقي .. وصححه الألباني
 في (إرواء الغليل) رقم ١ / ٧٣٦ (١٨٥ / ٣) .

عَلَى أَهْلِهَا ظُلْمَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ نُورًا ، ^(١) ومثل هذا كثير

ونظير هؤلاء الذين أبطلوا الأسباب المقدرة في خلق الله من أبطل الأسباب المشروعة في أمر الله ، كالذين يظنون أن ما يحصل بالدعاء والأعمال الصالحة وغير ذلك من الخيرات إن كان مقدرًا حصل بدون ذلك ، وإن لم يكن مقدرًا لم يحصل بذلك وهؤلاء كالذين قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - : « أَفَلَا نَدْعُ الْعَمَلَ وَنَتَّكِلَ عَلَى الْكِتَابِ ؟ » فقال : « لَا ؛ اْعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ » ^(٢) .

وفي السنن أنه قيل : بارسول الله : أرايت أدوية تنداوى بها ، ورق نسترق بها وتقاة نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ فقال : « هِيَ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ » ^(٣) ولهذا قال من قال من العلماء : الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً تغيير في وجه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع .

والله سبحانه - خلق الأسباب والمسببات ، وجعل هذا سبباً لهذا ، فإذا قال القائل : إن كان هذا مقدرًا حصل بدون السبب وإلا لم يحصل ، جوابه : أنه مقدر بالسبب وليس مقدرًا بدون السبب : كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ وَخُلُقِ النَّارِ أَهْلًا خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ » ^(٤) .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « اْعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، أَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ » ^(٥) .

(١) رواه مسلم (٥٦/٣) والبيهقي (٤٧/٤) وأحمد (٣٨٨/٢) عن أبي هريرة . وهو في (إرواء الغليل) رقم ١/٧٣٦ (١٨٤/٣) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) أخرجه مسلم (٥٤/٨ ، ٥٥) ، وأبو داود (٤٧١٣) ، والنسائي في (الجنائز) ، وابن ماجه (٨٢) ، وأحمد (٤١/٦ ، ٢٠٨) عن عائشة مرفوعاً ، وهو في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) للألباني رقم ١٨٣٠ الجزء الرابع (٤٤٦) .

(٥) رواه الشيخان والطبراني وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه من مسند علي - رضي الله عنه - وهو في (كنز العمال) رقم ١٥٥٢ (٣٤٢/١) .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود ^(١) - رضى الله عنه - قال : حدثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الصادق المصدوق : « إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خُلُقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْقَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : فَيَقَالُ : اكْتُبْ رِزْقَهُ ، وَعَمَلَهُ ، وَأَجَلَهُ ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ قَالَ : قَوْلَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا » ^(٢) .

فبين - صلى الله عليه وسلم - أن هذا يدخل الجنة بالعمل الذي يعمله ويختم له به ، وهذا يدخل النار بالعمل الذي يعمله ويختم له به ، كما قال - صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنَّوَائِظِ » ^(٣)

وذلك لأن جميع الحسنات تحبط بالردة ، وجميع السيئات تغفر بالتوبة ، ونظير ذلك من صام ثم أفطر قبل الغروب ، أو صلى وأحدث عمدا قبل كمال الصلاة بطل عمله .

بالجملة فالذى عليه سلف الأمة وأئمتها ما بعث الله به رسله وأنزل كتبه فيؤمنون بخلق الله وأمره ، بقدره وشرعه ، بحكمه الكونى وحكمه الدينى ، وإرادته

(١) سبقت الترجمة .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) رواه البخارى فى (كتاب القدر) وهو فى (الفتح) رقم ٦٦٠٧ (٥٠٧/١١) وقال الحافظ : (وقع فى حديث أنس عند الترمذى وصححه) : « إذا أراد الله بعبد خيرا استعمله - يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه » . وأخرجه أحمد من هذا الوجه مطولاً وأوله « لا تعجبوا لعمل عامل حتى تنتظروا بم يلتم له » . واخرجه الطبرانى من حديث أبى امامة مختصراً ، واخرج البزار من حديث ابن عمر حديثاً فيه ذكر الكتابين فى آخره : (العمل بخواتيمه ، العمل بخواتيمه) ا . هـ . وهو عند أبى داود من مسند سهل بن سعد . وإنما الأعمال بالخواتيم » : انظر (كنز العمال) رقم ١٥٧٤ (٣٥٣/١) . كذلك روى ابن جرير من مسند ابن عمر حديث « العمل بخواتيمه » وهو فى (كنز العمال) رقم ١٥٧٦ (٣٥٤/١) وروى ابن عساکر عن معاوية « إنما الأعمال بخواتيمها » وهو فى (كنز العمال) رقم ٥٢٨٦ (٢٦/٣) :

الكونية والدينية ، كما قال في الآية الأولى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ ﴾ ^(١) وقال نوح عليه السلام : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ ^(٢) وقال - تعالى - في الإرادة الدينية : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ^(٤) وقال : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ^(٥) .

وهم مع إقرارهم بأن الله خالق كل شيء وربهم ومليكه ، وأنه خلق الأشياء بقدرته ومشيئته يقرون بأنه لا إله إلا هو ، لا يستحق العبادة غيره ، ويطيعونه ويطيعون رسله ، ويحبونه ويرجونه ويخشونه ، ويتكلمون عليه وينيبون إليه ، ويوالون أوليائه ، ويعادون أعداءه ، ويقرون بحبته لما أمر به ولعباده المؤمنين ورضاه بذلك وبغضه لما نهى عنه ، وللكافرين وسخطه لذلك ومقته له ، ويقرون بما استفاض عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من « أَنَّ اللَّهَ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ النَّاسِ مِنْ رَجُلٍ أَضَلَّ راحِلَتَهُ بِأَرْضِ دَوِّيَّةٍ مُهْلِكَةٍ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَطَلَبَهَا فَلَمْ يَجِدْهَا ، فَقَالَ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ إِذَا بَدَأَتْهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ

(١) جزء من الآية ١٢٥ من سورة الأنعام .

(٢) جزء من الآية : ٣٤ من سورة هود .

(٣) جزء من الآية : ١٨٥ من سورة البقرة .

(٤) الآية : ٢٦ من سورة النساء .

(٥) جزء من الآية : ٦ من سورة المائدة .

وَشَرَابُهُ ، قَالَ اللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ « (١) .

فهو إلههم الذى يعبدونه وربهم الذى يسألونه كما قال - تعالى - : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٢) فهو المعبود المستعان .

(١) رواه الشيخان عن ابن مسعود - رضى الله عنه - مرفوعا : « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض ذَوِيَّة مهلكة ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ماشاء الله ، قال : أرجع إلى مكاني الذى كنت فيه فأناام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده لم يمت ، فاستيقظ ، فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ، فالحه أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده » وروى نحوه مسلم عن أبى حمزة أنس بن مالك - رضى الله عنه - مرفوعا : « الله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ، ثم قال - من شدة الفرح - اللهم أنت عبدى وأنا ربك ! أخطأ من شدة الفرح » وهو فى (صحيح الجامع الصغير) للألبانى برقم ٥٠٣٠ (٨٩٨/٢) .
وروى حديث ابن مسعود أحمد والترمذى ، ورواه الترمذى وأبو ماجه مختصرا عن أبى هريرة ، فانظر (صحيح الجامع) رقم ٥٠٣٢ ، و٥٠٣٤ (٨٩٨/٢) .

(٢) الآيات الأولى من سورة الفاتحة .

« الفتوى الثالثة (٥١٩ - ٥٢٣ / ٨) :

وتكلم شيخ الإسلام - رحمه الله - فأجاد وأفاد - جزاه الله خيرا - في بيان أثر الأسباب في الغلاء والرخص حين سئل : عن الغلاء والرخص : هل هما من الله - تعالى - أم لا ؟ .

فأجاب :

جميع ماسوى الله من الأعيان وصفاتها وأحوالها مخلوقة لله ، مملوكة لله ، هو ربها وخالقها ومليكتها ومدبرها ، لا رب لها غيره ، ولا إله سواه ، له الخلق والأمر ، لا شريك له في شيء من ذلك ، ولا معين ، بل هو كما قال - سبحانه - : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرْكَ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا نُنْفَعُ الشَّفْعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ ^(١) .

اخبر - سبحانه - أن ما يدعى من دونه ليس له مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا شرك في ملك ، ولا إعانة على شيء وهذه الوجوه الثلاثة : هي التي ثبت بها حق الغير ، فإنه إما أن يكون مالكا للشيء مستقلا بملكه ، أو يكون مشاركا له فيه نظير أو لا ذا ولا ذاك ، فيكون معينا لصاحبه : كالوزير والمشير والمعلم و المنجد والناصر ، فبين - سبحانه - أنه ليس لغيره ملك لمثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا لغيره شرك في ذلك لاقليل ولا كثير ، فلا يملكون شيئا ، ولا لهم شرك في شيء ، ولا له - سبحانه - ظهير : وهو المظاهر المعاون ، فليس له وزير ولا مشير ولا ظهير .

(١) الآية : ٢٢ وجزء من الآية : ٢٣ من سورة سبأ

وهذا كما قال - سبحانه - : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَوْلَىٰ مِنْ الدُّلِّ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا ۝ ﴾^(١) فإن المخلوق يوالى المخلوق لذله ، فإذا كان له من يواليه عز بوليّه ، والرب - تعالى - لا يوالى أحداً لذلته - تعالى - بل هو العزيز بنفسه و﴿ مَنْ كَانَ يَرْيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۝ ﴾^(٢) وإنما يوالى عباده المؤمنين لرحمته ونعمته وحكمته ، وإحسانه وجوده وفضله وإنعامه .

. وحيث : فالغلاء بارتفاع الأسعار ، والرخص بانخفاضها ، هما من جملة الحوادث التي لا خالق لها إلا الله وحده ، ولا يكون شيء منها إلا بمشيئته وقدرته ، لكن هو - سبحانه - قد جعل بعض أفعال العباد سببا في بعض الحوادث ، كما جعل قتل القاتل سببا في موت المقتول ، وجعل ارتفاع الأسعار قد يكون بسبب ظلم العباد ، وانخفاضها قد يكون بسبب إحسان بعض الناس ، ولهذا أضاف من أضاف من القدريّة المعتزلة وغيرهم الغلاء والرخص إلى بعض الناس ، وبنوا على ذلك أصولاً فاسدة .

(أحدها) : أن أفعال العباد ليست مخلوقة لله تعالى .

(والثاني) : أن ما يكون فعل العبد سببا له يكون العبد هو الذى أحدثه .

(والثالث) : أن الغلاء والرخص إنما يكون بهذا السبب .

وهذه الأصول باطلة ؛ فإنه قد ثبت أن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها ، ودلت على ذلك الدلائل الكثيرة السمعية والعقلية ، وهذا متفق عليه بين سلف الأمة وأئمتها ، وهم مع ذلك يقولون : إن العباد لهم قدرة ومشية ، وأنهم فاعلون لأفعالهم ، ويثبتون ما خلقه الله من الأسباب ، وما خلق الله من الحكم .

(ومسألة القدر) مسألة عظيمة ، ضل فيها طائفتان من الناس : (طائفة) أنكرت أن يكون الله خالقا لكل شيء ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، كما

(١) الآية : ١١١ من سورة الإسراء ..

(٢) جزء من الآية : ١٠ من سورة فاطر .

أنكرت ذلك المعتزلة . و(طائفة) أنكرت أن يكون العبد فاعلاً لأفعاله ، وأن تكون لهم قدرة لها تأثير في مقلورها ، أو أن يكون في المخلوقات ماهو سبب لغيره ، وأن يكون الله خلق شيئاً للحكمة ، كما أنكر ذلك الجهم بن صفوان ^(١) . ومن اتبعه من المجبرة الذى نسب كثير منهم إلى السنة ، والكلام على هذه المسألة مبسوط في مواضع آخر .

و(الاصل الثانى) : وهو : أن ما كان فعل العبد أحد أسبابه : كالشع الذى يكون بسبب الأكل ، وزهوق النفس الذى يكون بالقتل ، فهذا قد جعله أكثر المعتزلة فعلاً للعبد ، والجبرية لم يجعلوا لفعل العبد فيه تأثيراً ، بل ماتيقنوا أنه سبب ، قالوا : إنه عنده لا به ، وأم السلف والأئمة فلا يجعلون العبد فاعلاً لذلك ، كفعله لما قام به من الحركات ، فلا يمنعون أن يكون مشاركاً فى أسبابه ، وأن يكون الله جعل فعل العبد مع غيره أسباباً فى حصول مثل ذلك .

وقد ذكر الله فى كتابه النوعين بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝١٣٠ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٣١ ﴾ ^(٢) والإنفاق والسير هو نفس اعمالهم القائمة بهم ، فقال فيها : إلا كتب لهم ، ولم يقل إلا كتب لهم به عمل صالح ، فإنها نفسها عمل ، فنفس

(١) هو أبو محمد : جهم بن صفوان السمرقندى ، من موالى بنى راسب ، إليه تنسب فرقة (الجهمية) أو (الجبرية) التى ترى أن الإنسان مجبر على أفعاله ، مُسَيَّرٌ لَا مُخَيَّرٌ ، وتنفى الصفات ، قال عنه الذهبي : الضال المبدع ، هلك فى زمان صغار التابعين وقد زرع شراً عظيماً . استعمله الحارث بن سريج الخارج على أمراء خراسان الامويين ، فظفر به نصر بن يسار وقتله بمرو على شط نهر بلخ سنة (١٢٨ هـ / ٧٤٥ م) [انظر ترجمته فى ميزان الاعتدال ١٩٧/١ ، والكامل لابن الأثير (حوادث سنة ١٢٨) ولسان الميزان ١٤٢/٢]
الأعلام للزركلى ج ١٤١/٢ .

(٢) جزء من الآية : ١٢٠ ، والآية ١٢١ من سورة التوبة

كتابتها يحصل به المقصود ، بخلاف الظماً والنصب والجوع الحاصل بغير الجهاد ، بخلاف غيظ الكفار بما نيل منهم ، فإن هذه ليست نفس أفعالهم ، وإنما هي حادثة عن أسباب منها : أفعالهم ، فلهذا قال - تعالى -

﴿ تَبَايَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِيهِمْ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ .

فتبين أن ما يحدث من الآثار عن أفعال العباد لهم بها عمل ، لأن أفعالهم لهم كانت سببا فيها ، كما قال - صلى الله عليه وسلم - « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْآخِرِ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ أَتَبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِ هِمَّ شَيْءٌ ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْوِزْرِ مِثْلُ أُوزَارٍ مِنْ أَتَبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُوزَارِهِمْ شَيْءٌ » ^(١) .

و(الأصل الثالث) : أن الغلاء والرخص لا تنحصر أسبابه في ظلم بعض ، بل قد يكون سببه قلة ما يخلق ، أو يجلب من ذلك المال المطلوب ، فإذا كثرت الرغبات في الشيء وقل المرغوب فيه : ارتفع سعره ، فإذا كثرت الرغبات فيه انخفض سعره ، والقلة والكثرة قد لا تكون بسبب من العباد ، وقد تكون بسبب لا ظلم فيه ، وقد تكون بسبب فيه ظلم ، والله - تعالى - يجعل الرغبات في القلوب فهو - سبحانه - كما جاء في الأثر : « قد تغلو الأسعار والأهواء غزار ، وقد ترخص الأسعار والأهواء فقار » .

(١) رواه مسلم (٦٢/٨) وأبو داود (٢٦٢/٢) ، والترمذي (١١٢/٢) ، والدارمي (١٢٦/١) ، (١٢٧) ، وابن ماجه (٩١/١) ، وأحمد (٣٩٧/٢) من حديث أبي هريرة مرفوعا ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، كما أورده الألباني في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) رقم ٨٦٥ (٤٤٥/٢) ، وفي لفظ الحديث : « لا ينقص ذلك » بدلا « من غير أن ينقص » .

* الفتوى الرابعة (٢٨٧ - ٢٨٨ / ٩) .

وتطرق - رحمه الله - في فتواه الطويلة المسماة (بمسألة في العقل والنفس) الى حديث في (إثبات الأسباب) قال :

ومن الناس من ينكر القوى والطبائع كما هو قول أبي الحسن ^(١) ومن اتبعه من أصحاب مالك ^(٢) والشافعي ^(٣) وأحمد ^(٤) وغيرهم ، وهؤلاء المنكرون للقوى والطبائع ينكرون الأسباب أيضاً ويقولون : إن الله يفعل عندها لا بها ، فيقولون : إن الله لا يُشْبِعُ بالخبز ولا يروى بالماء ولا يُنْبِتُ الزرع بالماء ، بل يفعل عنده لا به ، وهؤلاء خالفوا الكتاب والسنة وإجماع السلف مع مخالفة صريح العقل والحس ، فإن

-
- (١) أبو الحسن : علي بن إسماعيل بن إسحاق (الأشعري) ، مؤسس مذهب الأشاعرة ، من أئمة المتكلمين المجتهدين ، كان معتزلياً ثم خالف المعتزلة وجاهر بخلافهم . ولد بالبصرة (٢٦٠ هـ / ٨٧٤ م) وتوفي ببغداد (٣٢٤ هـ / ٩٣٦ م) . [انظر ترجمته في : طبقات الشافعية ٢/ ٢٤٥ ، والمقرئ ٢/ ٣٥٩ ، وابن خلكان ١/ ٣٢٦ ، والبداية والنهاية ١١/ ١٨٧ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٢/ ٢١٨] الأعلام للزركلي ج ٤/ ٢٦٣ .
- (٢) أبو عبد الله : مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري .. أحد الأئمة الأربعة الأعلام ، صاحب (الموطأ) الذي وضعه لما سأله المنصور أن يضع كتاباً للناس يحملهم على العمل به ، كان مشهوداً له بالدين والصلابة ، ولد ومات بالمدينة (٩٣ - ١٧٩ هـ / ٧١٢ - ٧٩٥ م) [انظر ترجمته في : الوفيات ١/ ٤٣٩ ، وتهذيب التهذيب ١٠/ ٥ ، وصفة الصفوة ٢/ ٩٩ ، وحلية الأولياء ٦/ ٣١٦] الأعلام للزركلي ٥/ ٢٥٧ .
- (٣) أبو عبد الله : محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي الملقب ، أحد الأئمة الأربعة الأعلام ، ولد في غزة (١٥٠ هـ / ٧٦٧ م) ونشأ في مكة ، وزار بغداد مرتين قبل التوجه إلى مصر (١٩٩ هـ) حيث توفي بها (٢٠٤ هـ / ٨٢٠ م) ، اشتهر بالورع وسعة العلم وخلّة الذكاء .. من أشهر مؤلفاته (الأم) في الفقه [انظر ترجمته في : تهذيب التهذيب ٩/ ٢٥ ، والوفيات ١/ ٤٤٧ ، وصفة الصفوة ٢/ ١٤٠ ، وحلية الأولياء ٩/ ٦٣ ، وطبقات الشافعية ١/ ١٨٥ ، والبداية والنهاية ١٠/ ٢٥١] الأعلام للزركلي ٦/ ٢٦ .
- (٤) سبقت الترجمة .

الله قال في كتابه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ^(١) فأخبر أنه ينزل الماء بالسحاب ، ويخرج الثمر بالما . وقال - تعالى - : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ^(٢) . وقال ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ ^(٤) وقال : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُمْ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ ^(٥) وقال : ﴿ فَيَقُولُوا مَاذَا آرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ ^(٦) ومثل هذا في القرآن كثير .

والناس يعلمون بحسهم وعقولهم أن بعض الأشياء سبب لبعض ، كما يعلمون أن الشبع يحصل بالأكل لا بالعد ، ويحصل بأكل الطعام لا بأكل الحصى ، وأن الماء سبب لحياة النبات والحيوان ، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴾ ^(٧) وأن الحيوان يروى بشرب الماء لا بالمشي ، ومثل ذلك كثير ، ولبسط هذه المسألة موضع آخر .

(١) الآية : ٥٧ من سورة الاعراف .

(٢) جزء من الآية : ١٦٤ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ٩ من سورة ق .

(٤) الآية : ١٤ من سورة التوبة .

(٥) من الآيتين : ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة

(٦) من الآية : ٢٦ من سورة البقرة .

(٧) جزء من الآية ٣٠ من سورة الأنبياء .

ثالثا : فى أن الدعاء من نوع الاسباب

* الفتوى الأولى (٦٥ - ٧٧ / ٨) :

سئل شيخ الإسلام تقى الدين ابو العباس عن الحديث الذى ورد « إِنَّ اللَّهَ قَبْضَ قَبْضَتَيْنِ ، فَقَالَ : هَذِهِ لِلْجَنَّةِ وَلَا أَبَالَى ، وَهَذِهِ لِلنَّارِ وَلَا أَبَالَى » ^(١) فهل هذا الحديث صحيح ؟ والله قبضها بنفسه ، أو أمر أحدا من الملائكة بقبضها ؟ والحديث الآخر فى « أَنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ أَرَاهُ ذُرِّيَّتَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ ، ثُمَّ قَالَ : هَؤُلَاءِ إِلَى النَّارِ وَلَا أَبَالَى ، وَهَؤُلَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ وَلَا أَبَالَى » ^(٢) وهذا فى الصحيح ؟

فأجاب :

نعم ! هذا المعنى مشهور عن النبى - صلى الله عليه وسلم - من وجوه

(١) هذان القولان معنى لحديث بل لأحاديث عدة منها « إن الله - عز وجل - قبض قبضة فقال : فى الجنة برحمتى ، وقبض قبضة فقال : فى النار ولا أبالى » رواه أبو يعلى فى (مسنده) ١٧١/٢ ، والعقلى فى (الضعفاء) (٩٣) وقال : وقد روى القبطيتان أحاديث صحيحة . وروى أحمد (١٨٦/٤) ، وابن سعد فى (الطبقات) (٣٠/١ و ٤١٧/٧) ، وابن حبان فى صحيحه (١٨٠٦) ، والحاكم (٣١/١) : « إن الله - عز وجل - خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره وقال : هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالى ، فقال قائل : يا رسول الله فعلى ماذا نعمل ؟ قال : على مواقف القدر » . وروى نحوه أحمد وابنه فى زوائد المسند (٤٤١/٦) ، وابن عساكر فى (تاريخ دمشق) (١٣٦/١٥) . وروى نحوه أحمد (٦٨/٥) . وصحح الألبانى تلك الأحاديث فى (سلسلة الصحيحة) أرقام ٤٦ - ٥٠ ج ٦٨/١ - ٧١

متعددة ، مثل مافي موطأ مالك^(١)، وسنن أبي داود^(٢) والنسائي^(٣)، وغيره عن مسلم بن يسار^(٤) وفي لفظ عن نعيم بن ربيعة^(٥) أن عمر بن الخطاب^(٥) سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾^(٦) الآية فقال عمر : عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي لفظ : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سئل عنها : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، فَقَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ ، وَبَعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، فَقَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبَعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ » فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَفِيمَ الْعَمَلُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّ اللَّهَ إِذَا خَلَقَ الرَّجُلَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَإِذَا خَلَقَ الرَّجُلَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَدْخُلُهُ بِهِ النَّارَ »^(٧).

(١) سبقت الترجمة .

(٢) أبو عبد الرحمن النسائي : أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار (٢١٥ هـ / ٨٣٠ م - ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م) القاضي الحافظ ، شيخ الإسلام ، أصله من نسا (بخراسان) استوطن مصر ثم فلسطين له في المصنفات (السنن الكبرى) في الحديث و(السنن الصغرى) من الكتب الستة في الحديث ، وله (الضعفاء والمتروكون) في علم الرجال وغيرها [انظر ترجمته في : البداية والنهاية ١١/ ١٢٣ ، وطبقات الشافعية ٨٣/ ٢ وتذكرة الحفاظ ٢٤١/ ٢ وشذرات الذهب ٢٣٩/ ٢ وخلاصة تهذيب الكمال ٦/ ١] الأعلام للزركلي ج ١/ ١٧١ .

(٣) أبو عبدالله : مسلم بن يسار الأموي بالولاء ، فقيه ناسك ، من رجال الحديث ، كان مفتى البصرة على زمانه ، ولد في مكة ، وتوفي بالبصرة سنة (١٠٨ هـ / ٧٢٦ م) [انظر ترجمته في : تهذيب التهذيب ١٠/ ١٤ ، وحلية الأولياء ٢٩٠/ ٢] الأعلام للزركلي ج ٧/ ٢٢٣ .

(٤) غير معروف ، لم أجده بعد طول البحث ، أسقط ذكره الإمام مالك من سند الحديث ، وقال ابن كثير : (الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر نعيم بن ربيعة عمدا لما جهل حال نعيم ولم يعرفه فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث) : تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٧ .

(٥) سبقت الترجمة .

(٦) جزء من الآية : ١٧٢ من سورة الأعراف .

(٧) رواه مالك وأحمد وأبو داود والترمذي والحاكم ، وضعفه الألباني إذ ذكره في (ضعيف الجامع الصغير) رقم ١٦٠٢ (١/ ٨٨) ، وقال في تخريجه لأحاديث (مشكاة المصابيح) : (رجال إسناده ثقات رجال الشيخين غير أنه منقطع بين مسلم بن يسار وعمر ، لكن له شواهد كثيرة) (٩٥ ج ٣٤/ ١) ، والقول بالانقطاع سببه أن مسلم بن يسار لم يسمع من عمر - رضى الله عنه - وبينهما نعيم بن ربيعة المجهول .

وفي حديث الحكم بن سفيان ^(١) عن ثابت ^(٢) عن أنس بن مالك ^(٣) قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّ اللَّهَ قَبْضَ قَبْضَةٍ فَقَالَ : إِلَى الْجَنَّةِ بِرَحْمَتِي ، وَقَبْضَ قَبْضَةٍ فَقَالَ : إِلَى النَّارِ وَلَا أُبَالِي » ^(٤) وهذا الحديث ونحوه فيه فصلان .

(أحدهما) : القدر السابق ، وهو أن الله - سبحانه - علم أهل الجنة من أهل النار من قبل أن يعملوا الأعمال ، وهذا حق يجب الإيمان به ، بل قد نص الأئمة : كمالك ^(٥) والشافعي ^(٥) وأحمد ^(٥) أن من جحد هذا فقد كفر ، بل يجب الإيمان أن الله علم ماسيكون كله قبل أن يكون ويجب الإيمان بما أخبر به من أنه كتب ذلك ، وأخبر به قبل أن يكون كما في صحيح مسلم ^(٥) عن عبد الله بن

(١) بل هو (الحكم بن سنان) وهو شخص آخر غير الحكم بن سفيان ، واسمه الحكم بن سنان الباهلي الأنصاري القرني أبو عون (مات سنة ١٩٠ هـ) قال ابن معين والنسائي : ضعيف . وقال البخاري عنده وهم كثير وليس له كثير إسناد . وقال ابن سعد : كان ضعيفا في الحديث . وقال الآجري عن أبي داود : ضعيف ، وقال البخاري في (التاريخ الصغير) : لا يكتب حديثه ، وقال الساجي : صدوق كثير الوهم أراه كذابا ، وقال ابن حبان : ممن تفرد عن الثقات بالأحاديث الموضوعات لا يشتغل به ، وقال العقيلي : (في حديثه عن ثابت عن أنس في القبضتين - وهو هذا الحديث - لا يتابع عليه

(٢) أبو محمد : ثابت بن أسلم البناني ، روى عن ابن عمر وابن الزبير وأنس ، نقل الرازي في المرح والتعديل (١٠٨٥ ج ٤٤٦/٢) قول أحمد بن حنبل : ثابت ثبت في الحديث عن الثقات المأمونين صحيح الحديث ونقل قول يحيى بن معين عن ثابت قال . بصرى ثقة واختاره حماد بن سلمة (لما يقول الناس : القصاصون لا يحفظون) فوجد حفظه جيدا .

(٣) أبو غمامة أو أبو حمزة : أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجاري الخزرجي الأنصاري صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخادمه روى عنه ٢٢٨٦ حديثا في الكتب ولد بالمدينة (١٠ ق هـ/٦١٢ م) وتوفي بالبصرة (٩٣ هـ/٧١٢ م) وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة [انظر ترجمته في طبقات ابن سعد ١٠/٧ ، وتهذيب ابن عساكر ١٣٩/٣ ، وصفة الصفوة ٢٩٨/١] الأعلام للزركلي ٢٤/٢ .

(٤) رواه أبو يعلى في مسنده (٢/٧١) ، والعقيلي في (الضعفاء) ص ٩٣ ، وابن عدي في (الكامل) ٢/٦٦٠ ، وهو في (صحيح الجامع) للألباني برقم ١٧٨٤ (١/٤٦٧) وهذا هو الحديث الذي قال ابن عدي بسببه - بعض ما يرويه مما لا يتابع عليه ، وقال نحوه العقيلي . قال الألباني : قد توبع عليه ، فالحديث صحيح ، انظر (سلسلة الأحاديث الصحيحة) له رقم ٤٧ ومابعده (ج ٦٨/١) .

(٥) سبقت الترجمة .

عمرو^(١) عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ »^(٢) وفي صحيح البخارى^(٣) وغيره عن عمران بن حصين^(٤) عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ غَيْرُهُ ، عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَكُتِبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ ، وَخُلِقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ - وفي لفظ - ثُمَّ خُلِقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ »^(٥) .

وفي المسند عن العرباض بن سارية^(٦) عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه

(١) عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي ، أسلم قبل أبيه ، وأذن له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كتابة ما يسمعه منه ، وخاض الحروب والغزوات في سبيل الله ، وله ٧٠٠ حديث ، ولد في مكة قبل الهجرة (٧ في هـ/٦١٦ م) واختلفوا في مكان وفاته (٦٥ هـ/٦٨٤ م) [انظر ترجمته في : الإصابة ٤٨٣٨ ، وحلية الأولياء ٢٨٣/١ ، وصفة الصفوة ٢٧٠/١ الأعلام للزركلي ج ١١١/٤ .

(٢) رواه مسلم (٥١/٨) كتاب القدر ، باب كتب المقادير قبل الخلق . وطرف الحديث : « كتب الله تعالى مقادير الخلائق » الحديث ، هذه في مختصر صحيح مسلم (للمتنري رقم ١٨٤١ ص ٤٨٦ . وهو في صحيح الجامع الصغير) للألباني رقم ٤٤٧٤ ج ٨٢٦/٢ واخرجه أحمد (١٦٩/٢) ، والترمذي ، والبيهقي في (الاسماء) ٢٦٩ ، وفي رواية له « فرغ الله - عز وجل - من المقادير وامور الدنيا قبل أن يخلق السموات والأرض وعرشه على الماء بخمسين ألف سنة » أنظر : (الطحاوية) بتخريج الألباني رقم ٨ ص ١٣٤

(٣) أبو عبد الله : محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخارى ، حبر الإسلام ، حافظ من أئمة أهل الحديث ، صاحب (الجامع الصحيح) من أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التي انتقاها البخارى من ٦٠٠ ألف حديث سمعها . ولد في بخارى (١٩٤ هـ/٨١٠ م) وتوفى في إحدى قرى سمرقند (٢٥٦ هـ/٨٧٠ م) [انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ ١١٢/٢ وتهذيب التهذيب ٤٧/٩ ، والوفيات ٤٤٥/١ طبقات الخبالة ٢٧١/١ - ٢٧٩ ، وتاريخ بغداد ٣٦/٤/٢ لأعلام للزركلي ٣٤/٦ .

(٤) أبو نعيم الخزازي : عمران بن حصين بن عبيد ، من علماء الصحابة ، أسلم عام خيبر ، وأرسله عمر إلى البصرة ليفقه أهلها ، وولاه زياد قضاءها ، له في كتب الحديث ١٣٠ حديثا ، وتوفى بالبصرة سنة (٥٢ هـ/٦٧٢ م) [انظر ترجمته في : تهذيب التهذيب ١٢٥/٨ ، وصفة الصفوة ٢٨٣/١ ، وطبقات ابن سعد ٤/٧ ، وتذكرة الحفاظ ٢٨/١ الأعلام للزركلي ج ٧٠/٥ .

(٥) رواه البخارى في صحيحه في (بدء الخلق) و(التوحيد) بروايتين : (غيره) و(قبله) ، واخرجه البيهقي في (الاسماء والصفات) (٦ و ٢٧٠) ، ورواه أحمد (٤٣١/٤) بلفظ « كان الله - سادته وتعالى - قبل شيء » وقد أخرجه الألباني في (شرح العقيدة الطحاوية) رقم ٧٩ ص ١٣٣ .

(٦) العرباض بن سارية السلمى : أبو نعيم : صحابي مشهور من أهل الصفة ، لعله رابع من أسلم من الرجال ، وهو ممن نزل فيه قوله تعالى : ﴿وَلَا عَلَى الدِّينِ إِذَا مَا آتَاكَ لِتُحْمِلَهُمْ﴾ قال محمد بن عوف : كان قديم الإسلام جدلا ، وقال خليفة : مات في فتنة ابن الزبير ، وقال أبو مسهر وغير واحد : مات بعد ذلك سنة خمس وسبعين [انظر ترجمته في : الإصابة ٥٤٩٣ ج ٢٣٤/٤ ، وتهذيب التهذيب ٣٤٠ ج ١٤٧/٧] .

قال : « إني عند الله مكتوب بخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسأبشركم بأول ذلك : دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورؤيا أمي ، رأيت حين ولدني الله حرج منها نوراً أضاءت له قصور الشام ، ^(١) وفي حديث ميسرة الحر ^(٢) قلت : يا رسول الله ! متى كُتبت نبياً ؟ - وفي لفظ - متى كُنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » ^(٣)

وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود ^(٤) - رضى الله عنه - قال : حدثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الصادق المصدق : « أن خلق أجدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم ينعث إليه الملك فيومر بأربع كلمات فيقال : اكُتِبَ رِزْقُهُ ، وَعَمَلُهُ ، وَأَجَلُهُ ، وَشَقِيٌّ ، أَوْ سَعِيدٌ ، ثم ينفخ فيه الروح - قال : فوالذي نفسي بيده ، أو قال : فوالذي لا إله غيره - إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار » ^(٥)

وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب ^(٦) - رضى الله عنه - قال : كنا مع

(١) رواه أحمد ، والطبراني ، والحاكم ، وأبو نعيم في (الحلية) ، والبيهقي في (شعب الإيمان) : عن عرياض بن سارية ، وضعفه الألباني في (ضعيف الجامع الصغير) رقم ٢٠٩٠ ج ٢٢٣/١١ . ونوه إلى تضعيفه له في (سلسلة الأحاديث الضعيفة) رقم ٢٩٨٥ .

(٢) هو ميسرة الفجر ، أو ميسرة الفخر كما في (حلية الأولياء) ١٢٢/٧ ، وليس ميسرة الحر كما هو وارد هنا . وهو عبدالله بن أبي الجعداء التميمي ، ويقال الكنانى ويقال : العبدى . صحاح ذكره البخارى والبخارى وابن السكن وغيرهم في الصحابة وأخرجوا من طريق بديل بن ميسرة عن عبدالله بن شقيق عن ميسرة الفجر قال : قلت : يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ فذكره .. قال الحافظ في (الإصابة) رقم ٨٢٧٧ ج ١٤٩/٦ : وهذا سند قوى لكن اختلف فيه على بديل بن ميسرة ، فرواه منصور بن سعيد عنه هكذا ، وخالفه حماد بن زيد فرواه عن بديل عن عبدالله بن شقيق لم يذكر ميسرة وقد قيل : إنه عبدالله بن أبي الجعداء ، وميسرة لقب .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥٩/٥) ، وابن أبي عاصم في (السنة) رقم ٤١٠ ، وأبو نعيم في (الحلية) (٥٣/٩) ، وأخرجه البخارى في (التاريخ) (٣٧٤/١/٤) ، وابن سعد (٦٠/٧) ، وصححه الألباني في (سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها) رقم ١٨٥٦ ج ٤٧١/٤ وقد رواه الترمذى عن أبي هريرة . رقم ٣٨٧٠ . وهو في (صحيح سنن ابن ماجه) للألباني برقم ٢٨٥٦ ج ٢٨٩/٣ .

(٤) سبقت الترجمة .

(٥) سبق تخريجه .

(٦) سبقت الترجمة .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ببقيع الغرقد في جنازة ، فقال : « مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا قَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ » فقالوا : يا رسول الله ! أَفَلَا تَتَكَلَّمُ عَلَى الْكِتَابِ وَتَدْعُ الْعَمَلَ ؟ قَالَ : « اْعْمَلُوا فَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُسَرُّ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُسَرُّ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝ ﴾ (١) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝ ﴾ (٢) .

وفي الصحيح أيضا أنه قيل له : يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ فقال : « نعم » ! فقيل له : فقيم العمل ؟ قال : « اْعْمَلُوا فَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ » (٢) .

فبين النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الله علم أهل الجنة من أهل النار ، وأنه كتب ذلك ، ونهاهم أن يتكلموا على هذا الكتاب ، ويدعوا العمل كما يفعله الملحدون . وقال : كل ميسر لما خلق له ، وإن أهل السعادة ميسرون لعمل أهل السعادة ، وأهل الشقاوة ميسرون لعمل أهل الشقاوة ، وهذا من أحسن ما يكون من البيان .

وذلك أن الله - سبحانه وتعالى - يعلم الأمور على ما هي عليه ، وهو قد جعل للأشياء أسبابا تكون بها ، فيعلم أنها تكون بتلك الأسباب ، كما يعلم أن هذا يولد له بأن يطاء امرأة فيحبها ، فلو قال هذا : إذا علم الله أنه يولد لي فلا حاجة إلى الوطاء كان أحق ؛ لأن الله علم أن سيكون بما يقدره من الوطاء ، وكذلك إذا علم أن هذا ينبت له الزرع بما يسقيه من الماء ويندره من الحب ، فلو قال : إذا علم أن سيكون فلا حاجة إلى البذر ، كان جاهلا ضالاً ؛ لأن الله علم أن سيكون بذلك ، وكذلك إذا علم الله أن هذا يشبع بالأكل ، وهذا يروى بالشرب ، وهذا يموت بالقتل ، فلا بد من الأسباب التي علم الله أن هذه الأمور تكون بها .

(١) سبق تخريجه ، والآيات من سورة الليل ٥ - ١٠ .

(٢) سبق تخريجه .

وكذلك إذا علم أن هذا يكون سعيدا في الآخرة ، وهذا شقيا في الآخرة قلنا : ذلك لأنه يعمل بعمل الأَشقياء ، فالله علم أنه يشقى بهذا العمل ، فلو قيل : هو شقى ، وإن لم يعمل ، كان باطلاً ، لأن الله لا يدخل النار أحداً إلا بذنبه كما قال - تعالى - : ﴿ لَا تَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ^(١) . فأقسم أنه يملؤها من إبليس واتباعه ، ومن اتبع إبليس فقد عصى الله تعالى ، ولا يعاقب الله العبد على ما علم أنه يعمل حتى يعمل .

ولهذا لما سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن أطفال المشركين قال : « الله أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ » ^(٢) . يعنى أن الله يعلم ما يعملون لو بلغوا وقد روى أنهم في القيامة يبعث إليهم رسول فمن أطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار ^(٣) . فيظهر ما علمه فيهم من الطاعة والمعصية

وكذلك الجنة خلقها الله لأهل الإيمان به وطاعته ، فمن قدر أن يكون منهم يسره للإيمان والطاعة فمن قال : أنا أدخل الجنة سواء كنت مؤمناً أو كافراً إذا علم أنى من أهلها ، كان مفترياً على الله في ذلك ؛ فإن الله إنما علم أنه يدخلها بالإيمان ، فإذا لم يكن معه إيمان ، لم يكن هذا هو الذى علم الله أنه يدخل الجنة ، بل من لم يكن مؤمناً بل كافراً فإن الله يعلم أنه من أهل النار ، لا من أهل الجنة

ولهذا امر الناس بالدعاء والاستعانة بالله وغير ذلك من الأسباب ، ومن قال : أنا لأدعو ولا أسأل اتكالا على القدر ، كان مخطئاً أيضاً ؛ لأن الله جعل الدعاء والسؤال من الأسباب التى ينال بها مغفرته وهدايته ونصرته ورزقه . وإذا قدر للعبد خيراً يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء ، وما قدره الله وعلمه من أحوال

(١) الآية : ٨٥ من سورة ص .

(٢) . رواه الشيخان عن أبى هريرة ، وكذا أبو داود ، قال الألبانى في تخریج أحاديث (مشكاة المصابيح) : أخرجه - يعنى أبو داود - من طريقين أحدهما صحيح انظر : (مشكاة المصابيح) رقم ٩٣ (٣٤/١) ورقم ١١١ (٣٩/١)

(٣) لم أعر على هذه الرواية في مصدر موثوق به من كتب الأحاديث ، وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) في (شرح باب ما قيل في أولاد المشركين من كتاب التوحيد من صحيح البخارى) : « اختلف العلماء قديماً وحديثاً في هذه المسألة على أقوال : « فعدد عشرة أقوال ليس فيها ما ذكره ابن تيمية - رحمه الله - هنا ، فالله أعلم ، انظر : (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) ج ٣ / ٢٩٠ ، ٢٩١ .

العباد وعواقبهم فإنما قدره الله بأسباب يسوق المقادير إلى المواقيت ، فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب ، والله خالق الأسباب والمسببات .

ولهذا قال بعضهم : الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع . ومجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبب فإن المطر إذا نزل ويُنْزَرُ الحب لم يكن ذلك [كافيا] ^(١) في حصول النبات بل لابد من ريح مربية بإذن الله ، ولابد من صرف الانتفاء عنه ، فلا بد من تمام الشروط ، وزوال الموانع ، وكل ذلك بقضاء الله وقدره ، وكذلك الولد لا يولد بمجرد إنزال الماء في الفرج ، بل كم من أنزل ولم يولد له ، بل لابد من أن الله شاء خلقه فتحبل المرأة وتربيته في الرحم ، وسائر ما يتم به خلقه من الشروط وزوال الموانع .

وكذلك أمر الآخرة : ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة ، بل هي سبب ولهذا قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ » ^(٢) وقد قال : « ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » ^(٣) فهذه بآء السبب ، أى : بسبب أعمالكم ، والذي نفاه النبي - صلى الله عليه وسلم - بآء المقابلة كما يقال : اشتريت هذا بهذا ، أى : ليس العمل عوضا وثمنا كافيا في دخول الجنة ، بل لابد من عفو الله وفضله ورحمته ، فبعفوه يحو السيئات ، وبرحمته يأتي بالخيرات ، وبفضله يضاعف البركات .

وفي هذا الموضع ضل طائفتان من الناس .

(فريق) آمنوا بالقدر ، وظنوا أن ذلك كاف في حصول المقصود ، فأعرضوا عن الأسباب الشرعية ، والأعمال الصالحة ، وهؤلاء يؤول بهم الأمر إلى أن يكفروا بكتب الله ، ورسله ، ودينه .

(١) مابن القوسين ، زيادة من المحقق لسلامة السياق .

(٢) رواه البخارى ومسلم من حديث ابى هريرة وجابر وعائشة بالفاظ متقاربة ، وهو في (صحيح الجامع الصغير) للألبانى ، رقم ٥٢٢٢ ج ٩٢٧/٢ وفى (شرح العقيدة الطحاوية) رقم ٦١٣ ص ٤٣٧ .

(٣) جزء من الآية : ٣٢ من سورة النحل .

(وفريق) أخذوا يطلبون الجزاء من الله كما يطلبه الأجير من المستأجر ، متكئين على حوْلهم وقوتهم وعملهم ، وكما يطلبه الممالك ، وهؤلاء جهال ضلّال ؛ فإن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به حاجة إليه ، ولأنّهم عما نهاهم عنه بخلافه ، ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم ، ونهاهم عما فيه فسادهم ، وهو - سبحانه - قال : (يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى)^(١) فالملك إذا أمر مملوكه بأمر أمرهم لحاجته إليهم ، وهم فعلوه بقوتهم التى لم يخلقها لهم ، فيطالبون بجزاء ذلك ، والله - تعالى - غنى عن العالمين ، فإن أحسنوا لأنفسهم ، وإن أساءوا فلها - لهم ما كسبوا وعليهم ما اكتسبوا : ﴿ مِّنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(٢)

وفى الحديث الصحيح عن الله - تعالى - أنه قال : « يا عبادى : إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادى : إنكم تُخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أبالى ، فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى كلُّكم ضالٌّ إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادى : كلُّكم جائعٌ إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيدٍ واحد فسألوني فأعطيت كلَّ إنسانٍ منهم مسألتَهُ ما نقص ذلك في ملكي شيئاً ، إلا كما ينقص البحرُ أن يغمرَ فيه المحيطُ غمرته واحدة ، يا عبادى : إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفيكم بها ،

(١) جزء من الحديث القدسي الطويل الذى رواه مسلم فى صحيحه - كتاب البر - باب تحرير الظلم - (ج ١٠ ص ٨) وما بعدها ، وهو من حديث أبى ذر - رضى الله عنه - وطرقه : « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسي » الحديث ، وسيأتى بطوله قريباً .

(٢) الآية : ٤٦ من سورة فصلت .

فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ ﴿١﴾ .

وهو - سبحانه - مع غناه عن العالمين ، خلقهم وأرسل إليهم رسولا يبين لهم ما يسعدهم وما يشقيهم ، ثم إنه هدى عباده المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فمن عليهم بالإيمان والعمل الصالح ، فخلقهم بفضله ، وإرساله الرسول بفضله ، وهدايته لهم بفضله ، وجميع ما ينالون به الخيرات من قواهم وغير قواهم هي بفضله ، فكذلك الثواب والجزاء هو بفضله ، وإن كان أوجب ذلك على نفسه كما حرم على نفسه الظلم ، ووعد بذلك كما قال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ ^(٢) وقال - تعالى - : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٣) فهو واقع لا محالة واجب بحكم إيجابه ووعد ؛ لأن الخلق لا يوجبون على الله شيئا . أو يحرمون عليه شيئا ، بل هم أعجز من ذلك وأقل من ذلك ، وكل نعمة منه فضل ، وكل نعمة منه عدل ، كما في الحديث المتقدم : « إنما هي أعمالكم أحصيا لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

وفي الحديث الصحيح : « سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ بِذُنُوبِي فَاعْفُرْ لِي : إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ

(١) سبق تخريجه في الهامش قبل السابق ، وقد وقع فيه هنا تقديم وتأخير ، وسقط بعضه ، والنص كما ورد في الصحيح هو : « يا عبادي : إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادي : كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي : كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي : كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي : إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي : إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، مانقص ذلك مما عندي ، إلا كما ينقص الخط إذا أدخل البحر ، يا عبادي : إنما هي أعمالكم أحصيا لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

(٢) جزء من الآية : ٥٤ من سورة الأنعام .

(٣) جزء من الآية : ٤٧ من سورة الروم .

الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ مَنْ قَالَهَا إِذَا أَصْبَحَ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ^(١) .

فقوله : أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي ، اعتراف بإنعام الرب وذنب العبد ، كما قال بعض السلف : إني أصبح بين نعمة تنزل من الله عليّ ، وبين ذنب يصعد مني إلى الله ، فأريد أن أحدث للنعمة شكرا ، وللذنب استغفارا .

فمن أعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد ناظرا إلى القدر فقد ضل ، ومن طلب القيام بالأمر والنهي معرضا عن القدر فقد ضل ، بل المؤمن كما قال - تعالى - : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ^(٢) فنعبده اتباعا للأمر ، ونستعينه إيمانا بالقدر .

وفي الحديث الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ ، اخِرْصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ : فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » ^(٣) .

فأمره النبي - صلى الله عليه وسلم - بشيئين : أن يحرص على ماينفعه ، وهو امتثال الأمر ، وهو العبادة ، وهو طاعة الله ورسوله ، وأنه ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

فمن ظن أنه يطيع الله بلا معونته - كما يزعم القدرية والمجوسية - فقد جحد قدرة الله التامة ومشيعته النافذة ، وخلقه لكل شيء ، ومن ظن أنه إذا أُعِينَ على

(١) أخرجه البخارى في (الدعوات) ، والنسائى في (الاستعاذة) ، والترمذى (٢٢٩/٤) ، وأحمد (١٢٢/٤) ، (١٢٥) ، والطبرانى (٧١٧٢-٧١٧٤) و(٧١٨٧) و(٧١٨٩) ، وصححه ابن حبان (٢٣٥٣) ، وسنده صحيح ، رجاله ثقات ، قاله الألبانى في (سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها) رقم ١٧٤٧ ج ٣٢٨/٤ .

(٢) الآية : ٥ من سورة الفاتحة .

(٣) سبق تخريجه .

ما يريد ، ويسر له ذلك كان محمودا سواء وافق الأمر الشرعى أو خالفه ، فقد جحد دين الله وكذب بكتبه ورسله ووعدته ووعدته ، واستحق من غضبه وعقابه أعظم ما يستحقه الأول .

فإن العبد قد يريد ما يرضاه الله ويحبه ويأمر به ويقرب إليه ، وقد يريد ما يغيضه الله ويكرهه ويسخطه ، وينهى عنه ويعذب صاحبه ، فكل من هذين قد يسر له ذلك كما قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « كُلُّ مُيسِّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، أَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَمُيسِّرٌ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَمُيسِّرٌ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ » ^(١) وقد قال - تعالى - ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝ كَلَّا نُمَدِّدْهُمْ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝ » ^(٢) وقال - تعالى - ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ۝ كَلَّا ۚ » ^(٣) .

بين - سبحانه - انه ليس كل من ابتلاه في الدنيا يكون قد أهانه ، بل هو يتلى عبده بالسراء والضراء ، فالمؤمن يكون صبارا شكورا ، فيكون هذا وهذا خيرا له ، كما فى الصحيح عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « لَا يَقْضَى اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءٌ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » ^(٤) .

(١) سبق تخريجه .

(٢) الآيات : ١٨ - ٢٠ من سورة الإسراء .

(٣) الآيتان : ١٥ و ١٦ وأول الآية : ١٧ من سورة الفجر .

(٤) رواه أحمد (٣٣٣، ٣٣٢/٤) و (١٥/٦) عن صهيب ، وأخرجه مسلم عنه فى صحيحه (٢٢٧/٧) ، وأخرج نحوه الدارمى (١٦/٦) قال الألبانى فى (سلسلة الأحاديث الصحيحة) رقم ١٤٧ (٥٦/١) وله شاهد من حديث سعد بن أبى وقاص مرفوعا نحوه . أخرجه الطيالسى (٢١١) بإسناد صحيح ، وله شاهد آخر مختصر بلفظ : « عجا للمؤمن لا يقضى الله له شيئا إلا كان خيرا له »

والمنافق هُلُوعٌ جَزُوعٌ ، كما قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ۝ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ جَنَّاتٍ مَّكْرُومًا ۝ ^(١) .

ولما كان العبدٌ ميسرًا لما لا ينفعه بل يضره من معصية الله والبَطَرِ والطغيان ، وقد يقصد عبادة الله وطاعته والعمل الصالح فلا يتأقن له ذلك ، أمر في كل صلاة بأن يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ^(٢) وقد صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « يَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ ، نِصْفَهَا لِي ، وَنِصْفَهَا لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ : حَمِدَنِي عَبْدِي ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ قَالَ : أَتَنَى عَلَيَّ عَبْدِي ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ مَا لِيكَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ قَالَ : مَجَّدَنِي عَبْدِي ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قَالَ : هَذِهِ الْآيَةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قَالَ : فَهَؤُلَاءِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » ^(٣) .

وقال بعض السلف : أنزل الله - عز وجل - ، مائة كتاب ، وأربعة كتب جمع علمها في الكتب الأربعة : التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان ، وجمع الأربعة في القرآن ، وعِلْمُ الْقُرْآنِ فِي الْمَفْصَلِ ^(٤) وعلم المفصل في الفاتحة ، وعلم الفاتحة في قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

= وألفاظ طرف الحديث منها : (عجبا للمؤمن) و(عجبا لأمر المؤمن) و(عجبت لأمر المؤمن) .

(١) الآيات : ١٩ - ٣٥ من سورة المعارج . (٢) الآية : ٥ من سورة الفاتحة .

(٣) رواه مالك في باب (القراءة خلف الإمام فيما لا يجهل فيه بالقراءة) ج ١ ص ٤٣ هامش مصابيح السنة عن أبي هريرة . وكذا أخرجه مسلم عنه في (صحيحه) باب (وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة) ج ٣ ص ١٢ من هامش العسقلاني .

(٤) المفصل : اصطلاح يطلق على سور القرآن الكريم ابتداء من سورة (ق) على الأصح حتى آخر القرآن تفاقا . قاله الألباني في (صفة صلاة النبي - صلى الله عليه وسلم -) ص ٥٥ فصل (جمعه - صلى الله عليه وسلم - بين النظائر وغيرها في الركعة) .

فكل عمل يعمله العبد ، ولا يكون طاعة لله وعبادة ، وعملاً صالحاً فهو باطل ، فإن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله وإن ثال ذلك العمل رئاسة ومالاً ، فغاية المترئس أن يكون كفرعون ، وغاية المتمول أن يكون كقارون ، وقد ذكر الله في سورة القصص من قصة فرعون وقارون ما فيه عبرة لأولى الألباب ، وكل عمل لا يعين الله العبد عليه فإنه لا يكون ولا ينفع ، فما لا يكون به لا يكون ، وما لا يكون له لا ينفع ولا يدوم ، فلذلك أمر العبد أن يقول : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

والعبد له في المقدور (حالان) حال قبل القدر ، و(حال) بعده ، فعليه قبل المقدور أن يستعين بالله ويتوكل عليه ويدعوه ، فإذا قدر المقدور بغير فعله فعليه أن يصبر عليه أو يرضى به ، وإن كان بفعله وهو نعمة حمد الله على ذلك ، وإن كان ذنباً استغفر إليه من ذلك .

وله في المأمور (حالان) : حال قبل الفعل وهو العزم على الامتثال والاستعانة بالله على ذلك . وحال بعد الفعل وهو الاستغفار من التقصير وشكر الله على ما أنعم به من الخير ، وقال - تعالى - : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ ^(١) أمره أن يصبر على المصائب المقدرة ويستغفر من الذنب ، وإن كان استغفار كل عبد بحسبه ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقال - تعالى - : ﴿وَإِنْ نَصَبُوا وَتَتَقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ^(٢) وقال يوسف : ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ^(٣) فذكر الصبر على المصائب والتقوى بترك المصائب ، وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « اخْرُصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا . وَلَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » ^(٤) .

(١) جزء من الآية : ٥٥ من سورة غافر .

(٢) جزء من الآية : ١٨٦ من سورة آل عمران .

(٣) جزء من الآية : ٩٠ من سورة يوسف .

(٤) سبق تحريجه : وطره « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير » .

فأمره إذا أصابته المصائب أن ينظر إلى القدر ولا يتحسر على الماضي - بل يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه . وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فالنظر إلى القدر عند المصائب والاستغفار عند المصائب ، قال - تعالى - : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [٢٢] لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ (١)

وقال - تعالى - : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ (٢)

قال علقمة (٣) وغيره : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم والله - سبحانه وتعالى - أعلم .

(١) الآية : ٢٢ ، وجزء من الآية : ٢٣ من سورة الحديد .

(٢) جزء من الآية : ١١ من سورة التغابن .

(٣) هو أبو شبل : علقمة بن قيس بن عبدالله بن مالك النخعي الهمداني : تابعي من أكابر فقهاء العراق ، ولد في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وروى الحديث عن الصحابة ، ورواه عنه كثيرون ، كان يشبه ابن مسعود في هديه وسمته وفضله .. توفي بالكوفة سنة (٦٢ هـ / ٦٨١ م) [انظر ترجمته في تهذيب التهذيب ٢٧٦/٧ ، وحلية الأولياء ٩٨/٢ ، وتذكرة الحفاظ ٤٥/١ ، وتاريخ بغداد ٢٩٦/١٢] الأعلام للزركلي . ٢٤٨/٤ .

* الفتوى الثانية (١٩٢ - ١٩٦ / ٨) :

وتطرق شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية - رحمه الله - إلى مثل المعنى السابق في فتواه المسماة « بمراتب الإرادة » إذ جاء فيها قوله :

فصل

وأما (المسألة الرابعة) : فقلوه : إذا جف القلم بما هو كائن فما معنى قوله : ﴿ اَدْعُوْنِيْ اَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ^(١) وإن كان الدعاء أيضا مما هو كائن فما فائدة الأمر به ولا بد من وقوعه ؟؟

فيقال : الدعاء في اقتضائه الإجابة كسائر الأعمال الصالحة في اقتضائها الإثابة ، وكسائر الأسباب في اقتضائها المسببات ، ومن قال : إن الدعاء علامة ودلالة محضة على حصول المطلوب المستول ليس بسبب ، أو هو عبادة محضة لا أثر له في حصول المطلوب وجودا ولا عدما ، بل ما يحصل بالدعاء يحصل بدونه فهما قولان ضعيفان ؛ فإن الله علق الإجابة به تعليق المسبب بالسبب كقوله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ اَدْعُوْنِيْ اَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ^(١) وفي الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِيْثْمٌ وَلَا قَطِيعَةٌ رَّحِمَ إِلَّا أُعْطَاهُ بِهَا إِحْدَى خِصَالِ ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ يُعْجَلَ لَهُ دَعْوَتُهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَدْخَرَ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ مِثْلَهَا ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرَفَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ

(١) جزء من الآية : ٦٠ من سورة غافر

مِثْلَهَا » قالوا : يارسول الله إذا نُكِّثُ ، قَالَ : « اللَّهُ أَكْثَرُ » ^(١) فعلق العطايا بالدعاء تعليق الوعد والجزاء بالعمل المأمور به ، وقال عمر بن الخطاب ^(٢) : إني لا أحمل همَّ الإجابة ، وإنما أحمل هم الدعاء ، فإذا أُلِّمْتُ الدعاء فإن الإجابة معه وأمثال ذلك كثير .

وأيضا فالواقع المشهود يدل على ذلك ويبينه كما يدل على ذلك مثله في سائر الأسباب ، وقد أخبر - سبحانه - من ذلك ما أخبر به في مثل قوله : ﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ ^(٣) وقوله - تعالى - : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٤) فاستجبت له وخرجته من بطن السمكة . وقوله : ﴿ أَمِنْ يُحْيِي الْمُتْطَرِّدَ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ ^(٥) وقوله - تعالى - : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ ^(٦) فاستجبت لنا له ووهبنا له ربي يحيى وأصلح لنا الله زوجة ^(٧) . وقال - تعالى - : ﴿ إِذَا رَاكَ بِكَ دُعَاؤُكَ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ^(٨) وقال - تعالى - : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ ^(٩) إن يشاء يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ^(١٠) إن في ذلك لآياتٍ لكل صبارٍ شكورٍ ^(١١)

(١) رواه أحمد في مسنده ج ١٨/٣ عن أنى سعيد - رضى الله عنه - وله شاهد آخر فيه ج ٤٤٨/٢ ، ورواه ابن أبي شيبة ، وأبو يعلى في مسنده ، والحاكم في (المستدرک) ، والبيهقى في (شعب الإيمان) ، وهو في (كنز العمال) برقم ٣١٧١ ج ٧٠/٢ .

(٢) سبقت الترجمة

(٣) الآية : ٧٥ من سورة الصافات

(٤) الآيتان : ٨٧ ، ٨٨ من سورة الأنبياء .

(٥) جزء من الآية : ٦٢ من سورة النمل .

(٦) جزء من الآيتين : ٨٩ ، ٩٠ من سورة الأنبياء .

(٧) الآية : ٦٥ من سورة العنكبوت .

أَوْ يُوقِعَهُنَّ يَمَّا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ
مُحِيطٍ ﴿١﴾

فأخبر أنه إن شاء أَوْبَقَهُنَّ ، فاجتمع أخذهم بذنوبهم وعفوه عن كثير منها مع علم المجادلين في آياته أنه ما لهم من محيص ، لأنه في مثل هذا الحال يَعْلَمُ الْمُورِدَ للشبهات في الدلائل الدالة على ربوبية الرب وقدرته ومشيئته ورحمته أنه لا يخلص له مما وقع فيه كقوله في الآية الأخرى : ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ ﴿٢﴾ .

فإن المعارف التي تحصل في النفس بالأسباب الاضطرابية أثبت وأرسخ من المصارف التي ينتجها مجرد النظر والقياس - الذي ينزاح عن النفوس في مثل هذه الحال - هل الرب موجب بذاته ، فلا يكون هو المحدث للحوادث ابتداء ولا يمكنه أن يحدث شيئا ولا يغير العالم حتى يدعى ويسأل ؟ وهل هو عالم بالتفصيل والإجمال ، وقادر على تصريف الأحوال ، حتى يسأل التحويل من حال إلى حال ؟ أو ليس كذلك كما يزعمه من يزعمه من المتفلسفة وغيرهم من الضلال ، فيجتمع من العقوبة والعفو من ذى الجلال ، علم أهل المراء والجدال أنه لا محيص لهم عما أوقع بمن جادلوا في آياته وهو شديد المحال . وقد تكلمنا على هذا وأشباهه وما يتعلق به من المقالات والديانات في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن يُعْلَمَ أن الدعاء والسؤال هو سبب لنيل المطلوب المستول ، ليس وجوده كعدمه في ذلك ، ولا هو علامة محضة ، كما دل عليه الكتاب والسنة ، وإن كان قد نازع في ذلك طوائف من أهل القبلة وغيرهم مع أن ذلك يُقَرُّ به جماهير بنى آدم من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين ، لكن طوائف من المشركين والصابئين من المتفلسفة المشائين أتباع

(١) الآيات : ٣٢ - ٣٥ من سورة الشورى .

(٢) جزء من الآية ١٣ من سورة الرعد .

أرسطو^(١) ومن تبعه من متفلسفة أهل الملل^(٢) كالفارابي^(٣) ، وابن سينا^(٤) ،
ومن سلك سبيلهما - ممن خلط ذلك بالكلام والتصوف والفقہ ، ونحو هؤلاء -
يزعمون أن تأثير الدعاء في نيل المطلوب كما يزعمونه في تأثير سائر الممكنات
المخلوقات من القوى الفلكية والطبيعية والقوى النفسانية والعقلية ، فيجعلون
ما يترتب على الدعاء هو من تأثير النفوس البشرية من غير أن يثبتوا للخالق -
سبحانه - بذلك علماً مفصلاً ، أو قدرة على تغيير العالم ، أو أن يثبتوا أنه لو شاء
أن يفعل غير ما فعل لأمكنه ذلك ، فليس هو عندهم قادراً على أن يجمع عظام
الإنسان ويسوى بنانه ، وهو - سبحانه - هو الخالق لها ولقواها فلا حول ولا
قوة إلا بالله !!

وأما قوله : (وإن كان الدعاء مما هو كائن ، فما فائدة الأمر به ولا بد من وقوعه ؟) .

(١) أرسطو ، أو أرسطوطاليس .. فيلسوف يوناني كبير يلقبونه (بالمعلم الأول) . وهو أستاذ الإسكندر
الأكبر ، تأثر به بعض مفكرى العرب والمسلمين منذ نقلت مؤلفاته في المنطق والطبيعات إلى اللغة العربية ،
وقد عاش أرسطوطاليس ما بين سنتي ٣٨٤ ق . م . و ٣٢٢ ق . م .

(٢) لحل أصلها أن يكون (الملة) : يعنى ملة الإسلام .

(٣) هو أبو نصر الفارابي : محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ ، تركى الأصل ، وهو من أشهر الفلاسفة
المسلمين ، وعرف بالمعلم الثاني ، لشرحه مؤلفات أرسطو ، ولد في فاراب (على نهر جيحون) سنة
(٢٦٠ هـ / ٨٧٤ م) وعاش في بغداد ، وتوفى بدمشق سنة (٣٣٩ هـ / ٨٧٤ م) ، كان يجيد اليونانية وكثيراً
من اللغات الشرقية ، ميلاً للعزلة والزهد ، وله نحو مائة كتاب [انظر ترجمته في : وفيات الأعيان ٢/٧٦ ،
والبداية والنهاية ١١/٢٢٤ ، وطبقات الأطباء ٢/١٣٤ - ١٤٠ ، وتاريخ حكماء الإسلام ٣٠] [الأعلام
للزركلى ج ٢٠/٧ .

(٤) وهو أبو على : الحسين بن عبدالله بن سينا ، الملقب بالفيلسوف الرئيس ، ولد ونشأ وتعلم في بخارى ،
واشتغل بالطب والمنطق والطبيعات والإلهيات ، وصنف أكثر كتبه في هذه المعارف وهو بأصفهان التى
قصدتها هارباً من همدان لما ثار عليه عسكرها وهو أميرها ، وقد نسب ابن تيمية وابن القيم من بعده إلى القرامطة
الباطنيين وإلى الإسماعيليين والفاطميين ، وذلك من أقواله وأشهر كتبه (القانون) في الطب ، و (الشفاء) في
الحكمة وغيرهما الكثير ، ولد سنة (٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م) ومات في همدان سنة (٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م) [انظر
ترجمته في : وفيات الأعيان ١٥٢/١ وتاريخ حكماء الإسلام ٢٧ ، ٢٢ ، ودائرة المعارف الإسلامية
٢٠٣/١] [الأعلام للزركلى ٢/٢٤٢ .

فيقال : الدعاء المأمور به لا يجب كونا ، بل وإذا أمر الله العباد بالدعاء فعنهم من يطيعه فيستجاب له دعاؤه ، وينال طلبته ، ويدل ذلك على أن المعلوم المقدور هو الدعاء والإجابة ، ومنهم من يعصيه فلا يدعو فلا يحصل ماعلق بالدعاء ، فيدل ذلك على أنه ليس في المعلوم المقدور الدعاء ولا الإجابة ، فالدعاء الكائن هو الذي تقدم العلم بأنه كائن [والدعاء الذي لا يكون هو الذي تقدم العلم بأنه ^(١) لا يكون .

فإن قيل : فما فائدة الأمر فيما علم أنه يكون من الدعاء ؟ قيل : الأمر هو سبب أيضا في امتثال المأمور به كسائر الأسباب ، فالدعاء سبب يدفع البلاء ، فإذا كان أقوى منه دفعه ، وإن كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه ، لكن يخففه ويضعفه ، ولهذا أمر عند الكسوف والآيات بالصلاة والدعاء والاستغفار والصدقة والعق والى أعلم .

(١) ما بين القوسين من إضافة المحقق لاستكمال السياق وفق المعنى المراد هنا .

« الفتوى الثالثة (١٣٠ - ١/١٣٨) .

وقال شيخ الإسلام - رحمه الله - كلاماً جيداً في كون الدعاء من الأسباب ضمن فتواه المسماة (بالرسالة الواسطة بين الخلق والحق) حيث قال : ولا ريب أن دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع ، والله قد أمر بذلك ، لكن الداعي الشافع : ليس له أن يدعو ويشفع إلا بإذن الله له في ذلك ، فلا يشفع شفاعة نهي عنها ، كالشفاعة للمشركين والدعاء لهم بالمغفرة قال - تعالى - : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (١) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴿ (٢) وقال - تعالى - في حق المنافقين : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ (٣) .

وقد ثبت في الصحيح : أن الله نهي نبيه عن الاستغفار للمشركين والمنافقين ، وأخبر أنه لا يغفر لهم . كما في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (٤) وقوله : ﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٥) وقد قال - تعالى - : ﴿ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٦) في الدعاء - ومن الاعتداء في الدعاء : أن يسأل العبد مالم يكن الرب ليفعله ، مثل : أن يسأله منازل الأنبياء وليس منهم ، أو المغفرة للمشركين ، ونحو ذلك أو يسأله مافيه معصية الله كإعانتة على الكفر والفسوق والعصيان . فالشفيع الذي أذن الله له في الشفاعة : شفاعة في الدعاء الذي ليس فيه

(١) الآية ١١٣ ، وجزء من الآية : ١١٤ من سورة التوبة (٤) الآية : ٨٤ من سورة التوبة .

(٢) جزء من الآية : ٦ من سورة المنافقون (٥) الآية : ٥٥ من سورة الأعراف .

(٣) جزء من الآية : ١١٦ من سورة النساء .

عدوان ، ولو سأل أحدهم دعاء لا يصلح لة لا يقر عليه ، فإنهم معصومون أن يقرؤا على ذلك .

كما قال نوح : ﴿ إِنَّ أَبْنِيَ مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾^(١)
قال تعالى : ﴿ قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْنِ مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ أَعْطَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾^(٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ
أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَصْغُنَ مِنَ الْخَسِرِينَ^(٣)

وكل داع شافع دعا الله - سبحانه وتعالى - وشفع : فلا يكون دعاؤه وشفاعته إلا بقضاء الله وقدره ومشئته ، وهو الذى يجيب الدعاء ويقبل الشفاعة فهو الذى خلق السبب والمسبب ، والدعاء من جملة الأسباب التى قدرها الله - سبحانه وتعالى - .

وإذا كان كذلك : فالالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص فى العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ، بل العبد يجب أن يكون توكله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله - سبحانه وتعالى - والله يقدر له من الأسباب - من دعاء الخلق وغيرهم - ما شاء .

والدعاء مشروع أن يدعو الأعلى للأدنى ، والأدنى للأعلى : فطلب الشفاعة والدعاء من الأنبياء كما كان المسلمون يستشفعون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - فى الاستسقاء ، ويطلبون منه الدعاء ، بل وكذلك بعده استسقى عمر^(٣) والمسلمون بالعباس^(٤) عمه ، والناس يطلبون الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء ،

(١) جزء من الآية : ٤٥ من سورة هود .

(٢) جزء من الآية : ٤٦ والآية : ٤٧ بتامها من سورة هود . (٣) سبقت الترجمة

(٤) هو أبو الفضل : العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، عم النبي - صلى الله عليه وسلم - الكريم الجواد المحسن - أعتق سبعين عبدا من الرق اشتراهم ، أسلم قبل الهجرة وكنم إسلامه ، وهاجر إلى المدينة ، وشهد فتح مكة ، ولد بمكة سنة (٥١ ق . هـ / ٥٧٣ م) وتوفى بالمدينة سنة (٣٢ هـ / ٦٥٣ م) [انظر فى ترجمته ، أسد الغابة ، والجمع بين رجال الصحيحين ، والإصابة ، وصفة الصفوة ١ / ٢٠٣] الأعلام للزركلى ج ٣ / ٢٦٢ .

ومحمد - صلى الله عليه وسلم ، وهو سيد الشفعاء ، وله شفاعات يختص بها -
 ومع هذا - فقد ثبت في الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه
 قال : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ
 صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا ثُمَّ سَلُّوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا دَرَجَةٌ فِي
 الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ الْعَبْدَ ، فَمَنْ سَأَلَ
 اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(١) وقد قال لعمر لما أراد أن
 يعتمر وودعه : « يَا أَخِي لَا تَنْسَى مِنْ دَعَائِكَ » ^(٢) .

فالنبي - صلى الله عليه وسلم - قد طلب من أمته أن يدعوا له ، ولكن ليس
 ذلك من باب سؤالهم ، بل أمره بذلك لهم كأمره لهم بسائر الطاعات التي يثابون
 عليها ، مع أنه - صلى الله عليه وسلم - له مثل أجورهم في كل ما يعملونه ، فإنه
 قد صح عنه أنه قال : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ
 مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْوُزْرِ
 مِثْلُ أَوْزَارِ مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا » ^(٣) . وهو داعي
 الأمة إلى كل هدى ، فله مثل أجورهم في كل ما تبعوه فيه .

وكذلك إذا صلُّوا فإن الله يصلي على أحدهم عشرا ، وله مثل أجورهم مع ما
 يستجد من دعائهم له ، فذلك الدعاء قد أعطاهم الله أجورهم عليه ، وصار
 ما حصل له به من النفع نعمة من الله عليه ، وقد ثبت عنه في الصحيح أنه
 قال : « مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ يَظْهَرُ الْغَيْبُ يَدْعُو إِلَّا وَكَّلَ اللَّهُ بِهِ مَلَكًا ،

(١) رواه مسلم (٤/٢) ، وأبو داود (٥٢٣) ، والنسائي (١١٠/١) ، والترمذي في (الدعوات)
 (٢٨٢/٢) وأحمد (١٦٨/٢) ، والبيهقي (٤٠٩/١ ، ٤١٠) كلهم عن عبدالله بن عمرو بن العاص ،
 وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وهو في (إرواء الغليل) للألباني برقم ٢٤٢ ج ٢٥٩/١ ، وفي
 (صحيح الجامع الصغير) له برقم ٦١٣ ج ١٦٧/١
 (٢) رواه أبو داود ، والترمذي ، وقال الألباني : وإسناده ضعيف ، ولا تنفرد بإيراد بعض الكبار إياه
 وسكوته عليه فانظر تخریج أحاديث (مشكاة المصابيح) له رقم ٢٢٤٨ ج ٢٦٩/٢ .
 (٣) سبق تخریجه .

كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِدَعْوَةٍ قَالَ الْمَلِكُ الْمُؤَكَّلُ بِهِ : آمِينَ وَلَكَ مِثْلُ ذَلِكَ « (١)
وفي حديث آخر : « أَسْرَعُ الدُّعَاءِ دَعْوَةُ غَائِبٍ لِغَائِبٍ » (٢).

فالدعاء للغير ينتفع به الداعي والمدعو له ، وإن كان الداعي دون المدعو له ،
فدعاء المؤمن لأخيه ينتفع به الداعي والمدعو له ، فمن قال لغيره : ادع لي وقصد
انتفاعهما جميعا بذلك كان : هو وأخوه متعاونين على البر والتقوى ، فهو نبيه
المستول وأشار عليه بما ينفعهما ، والمستول فعل ماينفعهما بمنزلة من يأمر غيره ببر
وتقوى فيثاب المأمور على فعله ، والآمر أيضا يثاب مثل ثوابه ، لكونه دعا إليه
لاسيما ومن الأدعية ما يؤمر بها العبد ، كما قال - تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٣) فأمره بالاستغفار ثم قال - تعالى - : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ
إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ
لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ (٤)

فلذكر - سبحانه - استغفارهم ، واستغفار الرسول لهم إذ ذاك مما أمر به
الرسول ، حيث أمره أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، ولم يأمر الله مخلوقا أن
يسأل مخلوقا شيئا لم يأمر الله المخلوق به ، بل ما أمر الله العبد أمر إيجاب ، أو
استحباب ، ففعله هو عبادة لله وطاعة وقربة إلى الله ، وصلاح لفاعله وحسنة
فيه ، وإذا فعل ذلك كان أعظم لإحسان الله إليه ، وإنعامه عليه ، بل أجل نعمة
أنعم الله بها على عباده أن هداهم للإيمان .

(١) رواه مسلم (٨٦/٨) ، وأبو داود (١٥٣٤) عن أم الدرداء عن زوجها مرفوعا ، وأخرجه أحمد
(٤٥٢/٦) ، وابن ماجه (٢٨٩٥) ، وروى نحوه ابن عدى في (الكامل) (ق ١٨٠/١) عن أنى هريرة ،
وقد صححه الألباني في (صحيح الجامع الصغير) رقم ٥٣٥ ج ١/١٥٤ ، وفي (سلسلة الأحاديث
الصحيحة) رقم ١٣٣٩ ج ٣/٣٢٦ ، وفي (صحيح سنن ابن ماجه) رقم ٢٣٤٠ ج ٢/١٥٠ .
(٢) رواه الترمذى ، وأبو داود عن عبدالله بن عمرو ، وضعفه الألباني فلم يذكره في (صحيح سنن
الترمذى) رغم إيراد لاسم الباب : باب دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب (٥٠) إذ لم يصح عنده شيء في هذا
الباب ج ٢/١٩٠ ، ويلاحظ سكوته عنه في تخریج أحاديث (مشكاة المصابيح) رقم ٢٢٤٧ ج ٢/٦٩٥

(٣) جزء من الآية : ١٩ من سورة محمد .

(٤) جزء من الآية : ٦٤ من سورة النساء .

والإيمان قول وعمل ، يزيد بالطاعة والحسنات ، وكلما ازداد العبد عملاً للخير ازداد إيمانه . هذا هو الإنعام الحقيقي المذكور في قوله : ﴿ صَرَّطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(١) وفي قوله : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٢) بل نعم الدنيا بدون الدين : هل هي من نعمه أم لا ؟ فيه قولان مشهوران للعلماء من أصحابنا وغيرهم .

والتحقيق : أنها نعمة من وجه وإن لم تكن نعمة تامة من وجه ، وأما الإنعام بالدين الذي ينبغي طلبه فهو ما أمر الله به من واجب ومستحب فهو الخير الذي ينبغي طلبه باتفاق المسلمين ، وهو النعمة الحقيقية عند أهل السنة ، إذ عندهم أن الله هو الذي أنعم بفعل الخير ، والقدرية عندهم إنما أنعم بالقدره عليه ، الصالحة للضدين فقط .

والمقصود هنا : أن الله لم يأمر مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً إلا ما كان مصلحة لذلك المخلوق ، إما واجب أو مستحب . فإنه - سبحانه - لا يطلب من العبد إلا ذلك ، فكيف يأمر غيره أن يطلب منه غير ذلك ؟ بل قد حرم على العبد أن يسأل العبد ماله إلا عند الضرورة .

وإن كان قصده مصلحة المأمور أو مصلحته ومصلحة المأمور ، فهذا يثاب على ذلك ، وإن كان قصده حصول مطلوبه من غير قصد منه لانتفاع المأمور ، فهذا من نفسه أتى ، و مثل هذا السؤال لا يأمر الله به قط ، بل قد نهى عنه ، إذ هذا سؤال محض للمخلوق من غير قصده لنفعه وللمصلحة ، والله يأمرنا أن نعبده ونرغب إليه ، ويأمرنا أن نحسن إلى عباده .. وهذا لم يقصد لاهذا ولا هذا ، فلم يقصد الرغبة إلى الله ودعائه ، وهو الصلاة . ولا قصد الإحسان إلى المخلوق الذي هو الزكاة ، وإن كان العبد قد لا يأثم بمثل هذا السؤال ، لكن فرق ما بين ما يؤمر به العبد وما يؤذن له فيه ، ألا ترى أنه قال في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون

(١) جزء من الآية : ٧ من سورة الفاتحة .

(٢) جزء من الآية : ٦٩ من سورة النساء .

الجنة بغير حساب : « إِنَّهُمْ لَا يَسْتَرْقُونَ » وإن كان الاسترقاء جائزا ، وهذا قد بسطناه في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه ، كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية ، فهو مشرك ، بل هذا دين المشركين عُبَادِ الأوثان كانوا يقولون : إنها تماثيل الأنبياء والصالحين ، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله ، وهو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى حيث قال : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَأْمُورُوا بِالْعِبَادَةِ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ^(١) وقال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۚ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ ^(٢) أى : فليستجيبوا لى إذا دعوتهم بالأمر والنهى ، وليؤمنوا بى أن أجيب دعاءهم لى بالمسألة والتضرع .

وقال - تعالى - : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ ^(٣) وقال - تعالى - : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا ۚ ﴾ ^(٤) وقال - تعالى - : ﴿ أَمِنْ حَيْثُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۚ ﴾ ^(٥) وقال - تعالى - : ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ ^(٦) .

وقد بين الله هذا التوحيد فى كتابه ، وحسم مواد الإشراك به حتى لا يخاف غير

(١) الآية : ٣٠ من سورة التوبة .

(٢) الآية : ١٨٦ من سورة البقرة .

(٣) الآيتان : ٧ ، ٨ من سورة الشرح .

(٤) جزء من الآية : ٦٧ من سورة الإسراء .

(٥) جزء من الآية : ٦٢ من سورة النحل .

(٦) الآية : ٢٩ من سورة الرحمن .

الله ، ولا يرجو سواه ، ولا يتوكل إلا عليه . وقال - تعالى - : ﴿ فَلَا تَخْشَوْا النَّكَاسَ وَآخِشُونَ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ^(١) ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ ^(٢) أى : يخوفكم أوليائه . ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٣) وقال - تعالى - : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ ^(٤) وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا يَعْزَّمُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمْنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ ^(٥) وقال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ

وَيَتَّقِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ ^(٦) .

فبين أن الطاعة لله ورسوله ، وأما الخشية فله وحده .
وقال - تعالى - : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ ^(٧) ونظيره قوله -
تعالى - : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ

إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ^(٨) .

وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يحقق هذا التوحيد لأُمَّته ، ويجسم

(١) جزء من الآية : ٤٤ من سورة المائدة .

(٢) جزء من الآية : ١٧٥ من سورة آل عمران .

(٣) باقى الآية : ١٧٥ من سورة آل عمران .

(٤) جزء من الآية : ٧٧ من سورة النساء .

(٥) جزء من الآية : ١٨ من سورة التوبة .

(٦) الآية : ٥٢ من سورة النور .

(٧) جزء من الآية : ٥٩ من سورة التوبة .

(٨) الآية : ١٧٣ من سورة آل عمران .

عنهم مواد الشرك ، إذ هذا تحقيق قولنا : لا إله إلا الله ، فإن الإله هو الذى تأله القلوب ، لكمال المحبة والتعظيم ، والإجلال والإكرام ، والرجاء والخوف ، حتى قال لهم : « لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ، وَلَكِنْ قُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ » ^(١) وقال له رجل : ما شاء الله وشئت . فقال : « أَجَعَلْتَنِي اللَّهُ نَدًّا بِلَا مَا شَاءَ اللَّهُ وَخَدَهُ » ^(٢) . وقال : « مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْنُمْتُ » ^(٣) . وقال : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ اشْرَكَ » ^(٤) . وقال لابن عباس ^(٥) : « إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ ، فَلَوْ جَهَدْتَ الْخَلِيقَةَ عَلَى أَنْ تَنْفَعَكَ لَمْ تَنْفَعَكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ جَهَدْتَ أَنْ تَضُرَّكَ لَمْ تَضُرَّكَ إِلَّا بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ » ^(٦)

(١) رواه ابن ماجه (٢١١٨) ، وأحمد (٣٩٣/٥) ، وروى نحوه ابو داود (٤٩٨٠) والطحاوى في (مشكل الآثار) (٩٠/١) ، والبيهقى (٢١٦/٣) ، وأحمد (٣٨٤/٥ و ٣٩٤ و ٢٩٨) ، كلهم عن حذيفة ، ونصه : (لَا تَقُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٍ) وقد صححه الألبانى في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) رقم ١٣٧ ج ٤٥/١ .

(٢) رواه البخارى في (الأدب المفرد) (٧٨٧) ، وابن ماجه (٢١١٧) ، والطحاوى في (المشكل) (٩٠/١) ، والبيهقى (٢١٧/٣) ، وأحمد (٢١٤/١ و ٢٢٤ و ٢٨٣ و ٣٤٧) ، والطبرانى في الكبير (١/١٨٦/٣) ، وأبو نعيم في (الحلية) (٩٩/٤) : كلهم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - ، وحسنه الألبانى في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) رقم ١٣٩ ج ٤٧/١ .

(٣) حديث صحيح ، أخرجه البخارى (١٦١/٢ و ١٣٧/٤ و ٢٦٢ - ٢٦٣) ، ومسلم (٨١/٥) ، ومالك (١٤/٤٨٠/٢) ، وأبو داود (٣٢٤٩) ، والترمذى (٢٨٩/١) وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه أحمد (١١/٢ و ١٧ و ١٤٢) ، والبيهقى (٢٨/١٠) ، وابن أبى شيبه (١٧٩/٤) : كل هؤلاء وأولئك عن عبدالله بن عمر - رضى الله عنهما - ، وهو في (إرواء الغليل) للألبانى برقم ٢٥٦٠ ج ١٨٧/٨ ، وطرف الحديث : « إِنْ اللَّهُ يَهْأَكُم أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْنُمْتُ »

(٤) أخرجه الترمذى (٢٩٠/١) وحسنه ، وأبو داود (٣٢٥١) ، وابن حبان (١١٧٧) ، والحاكم (٢٩٧/٤) ، والبيهقى (٢٩/١٠) ، وأحمد (٣٤/٢ و ٦٧ و ٨٦ و ١٢٥) ، والطايعلى (١٨٩٦) : كلهم من حديث ابن عمر مرفوعا ، وقد صححه الألبانى في (إرواء الغليل) رقم ٢٥٦١ ج ١٨٩/٨ .

(٥) سبقت الترجمة .

(٦) رواه أحمد (٢٩٣/١ و ٣٠٧) ، والترمذى (٥٧/٢) ، والحاكم (٥٤١/٣) ، كلهم عن ابن عباس ، ولفظ الحديث : « يَا غُلَامُ ! احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ . وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رَفَعَ الْأَقْلَامَ وَجَعَلَ الصُّحُفَ » قال الألبانى في تخرىج أحاديث (مشكاة المصابيح) : في الترمذى (٥٧/٢) : هما (أى بدل قب) : انظر (مشكاة المصابيح) حديث رقم ٥٣٠٢ ج ١٤٥٩/٣ .

وقال أيضا : « لَا تُظَرُونِي كَمَا أَطَرَّتِ النَّصَارَى عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، وَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ » ^(١) وقال : « اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ » ^(٢) وقال : « لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تُبَلِّغُنِي حَيْثُ مَا كُنْتُمْ » ^(٣) وقال في مرضه : « لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » ^(٤) يحذر ماصنعوا . قالت عائشة ^(٥) : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجدا . وهذا باب واسع .

ومع علم المؤمن أن الله رب كل شيء ومليكه ، فإنه لا ينكر ما خلقه الله من الأسباب ، كما جعل المطر سببا لإنبات النبات قال الله - تعالى - : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ ^(٦) وكما جعل الشمس والقمر سببا لما يخلقهما ، وكما جعل الشفاعة والدعاء سببا لما يقضيه بذلك ، مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت ، فإن ذلك من الأسباب التي يرحمها الله بها ، ويثيب عليها المصلين عليه ؛ لكن ينبغي أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور :

- (١) رواه البخارى عن عمر ، وهو في (صحيح الجامع الصغير) للألبانى برقم ٧٣٦٣ ج ٢/١٢٢٩ .
- (٢) أخرجه أحمد (٢٤٦/٢) ، وابن سعد في (الطبقات) (ح ٢ ق ٢ ص ٣٦) : من حديث أبى هريرة .. وصحح الألبانى لإسناده ، فانظر تخريجه للحديث في (فقه السيرة) للقرزلى ، ص ٥٧ .
- (٣) أخرجه ابن أبى شيبه (٢/٨٣/٢) ، وعنه أبو يعلى في (مسنده) (ق ٢/٣٢) ، وإسماعيل القاضى في كتاب (فضل الصلاة على النبى - صلى الله عليه وسلم) حديث رقم ٢٠ ، وقال الألبانى عند تخريجه في (تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد) ص ٩٥ : وسنده مسلسل بأهل البيت - رضى الله عنهم - إلا أن أحدهم - وهو على بن عمر - مستور ، كما قال الحافظ في (التقريب) .
- (٤) رواه البخارى (١٥٦/٣) و ١٩٨ و ١١٤/٨ ، ومسلم (٦٧/٤) ، وأبو عوانة (٣٩٩/١) ، وأحمد (٨٠/٦ و ١٢١ و ١٤٦ و ٢٥٢ و ٢٥٥) ، والبخارى في شرح السنة (ج ١ ص ٤١٥) : كلهم عن عائشة - رضى الله عنها - وقال الألبانى : وسنده صحيح على شرط الشيخين : فانظر (تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد) ص ١٠ .

- (٥) أم المؤمنين : عائشة بنت أبى بكر الصديق عبد الله بن عثمان من قريش ، أفضه نساء المؤمنين وأعلمهن بالدين والأدب ، وأحب نساء النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى نفسه ، وأكثرهن رواية للحديث عنه ، ولدت بمكة سنة (٩ ق هـ / ٦١٣ م) وتوفيت بالمدينة سنة (٥٨ هـ / ٦٧٨ م) . ولها يكتب الحديث ٢٢١٠ أحاديث [انظر في ترجمتها : الإصابة (كتاب النساء) ٧٠١ ، وطبقات ابن سعد ٣٩/٨ ، وأعلام النساء ٧٦٠/٢ ، وحلية الأولياء ٤٣/٢ ، وصبح الأعشى ٤٣٥/٥ ، ومنهاج السنة ١٨٢/٢ - ١٨٦ و ١٩٢ - ١٩٨] الأعلام للزركلى ج ٣/٢٤٠ .
- (٦) جزء من الآية : ١٦٤ من سورة البقرة .

أحدها : أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب ، بل لابد معه من أسباب أُخَر ، ومع هذا فلها موانع . فإن لم يكمل الله الأسباب ، ويدفع الموانع : لم يحصل المقصود ، وهو - سبحانه - ما شاء كان - وإن لم يشأ الناس - وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله .

الثاني : أن لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم ، فمن أثبت شيئا سببا بلا علم أو يخالف الشرع : كان مبطلاً ، مثل من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه نهى عن النذر وقال : « إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبُخِيلِ » ^(١)

الثالث : أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سببا إلا أن يكون مشروعة ، فإن العبادات مبناه على التوقيف . فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله ، فيدعو غيره - وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه - وكذلك لا يعبد الله بالبدع المخالفة للشرعية - وإن ظن ذلك - فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك ، وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان ، فلا يحل له ذلك ، إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به ، إذ الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعث بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المقاسد وتقليلها ، فما أمر الله به فمصلحته راجحة ، وما نهى عنه : فمفسدته راجحة ، وهذه الجملة : لها بسط لاحتتمله هذه الورقة . والله أعلم .

(١) أخرجه البخارى (٢٥٤/٤ و ٢٧٤) ، ومسلم (٧٧/٥) ، وأبو داود (٣٨٧) ، والنسائى (١٤٢/٢) ، والدارمى (١٨٥/٢) ، وابن ماجه (٢١٢٢) ، والبيهقى (٧٧/١٠) ، وأحمد (٦١/٢) و (١١٨) : كلهم عن ابن عمر - رضى الله عنهما - ، وقد أخرجه الألبانى فى (إرواء الغليل) برقم ٢٥٨٥ ج ٢٠٨/٨

رابعاً : في معنى التوكل

تطرق شيخ الإسلام - رحمه الله - إلى إيضاح معنى التوكل على الله في عدة مواضع نذكر منها :

* في رسالته المسماة (بالتحفة العراقية في الأعمال القلبية) حيث قال (١٧ - ٣٨/١٠) :

وأما المحبة لله والتوكل عليه والإخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض ، وهي حسنة محبوبة في حق كل أحد من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ومن قال : إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة فقد غلط في ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها ، فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط ، وإنما يخرج عنها كافر أو منافق ، وقد تكلم بعضهم في ذلك بكلام بينا غلظه فيه وأنه تقصير في تحقيق هذه المقامات بكلام مبسوط ، وليس هذا موضعه .

ولكن هذه (المقامات) ينقسم الناس فيها إلى خصوص وعموم ، وللخاصة خاصها ، وللعامة عامها . مثال ذلك أن هؤلاء قالوا : (إن التوكل مناضلة عن النفس في طلب القوت ، والخاص لا يناضل عن نفسه . وقالوا : المتوكل يطلب بتوكله أمراً من الأمور ، والعارف يشهد الأمور بفروعها منها فلا يطلب شيئاً) فيقال :

أما الأول ، فإن التوكل أعم من التوكل في مصالح الدنيا ، فإن المتوكل يتوكل على الله في صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وإرادته ، وهذا أهم الأمور إليه ، ولهذا ينادي ربه في كل صلاة بقوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١) كما في قوله تعالى : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾^(٢) وقوله : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(٣) وقوله : ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾^(٤).

(١) الآية : ٥ من سورة الفاتحة .

(٢) جزء من الآية : ٨٨ من سورة هود .

(٣) جزء من الآية : ١٢٣ من سورة هود .

(٤) جزء من الآية : ٣٠ من سورة الرعد .

فهو قد جمع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع ، لأن هذين يجمعان الدين كله ، ولهذا قال من قال من السلف : إن الله جمع الكتب المنزلة في القرآن ، وجمع علم القرآن في المفصل ، وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب ، وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١).

وهاتان الكلمتان هما الجامعتان اللتان للرب والعبد ، كما في الحديث الذي في صحيح مسلم عن أنس بن مالك عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « يقول الله سبحانه : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، نصفها لي ونصفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل » وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يقول العبد : الحمد لله رب العالمين ، يقول الله : حمدني عبدي ، يقول العبد : الرحمن الرحيم ، يقول الله : أثني على عبدي ، يقول العبد : مالك يوم الدين ، يقول الله : مجدني عبدي ، يقول العبد : إياك نعبد وإياك نستعين ، يقول الله : فهذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، يقول العبد : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، يقول الله : فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل »^(٢) فالرب - سبحانه - له نصف الثناء والخير ، والعبد له نصف الدعاء والطلب ، وهاتان جامعتان ماللرب سبحانه ، وما للعبد : فإياك نعبد للرب ، وإياك نستعين للعبد .

وفي الصحيحين عن معاذ^(٣) رضي الله عنه - قال : كنت رديفا للنبي - صلى الله عليه وسلم - على حمار ، فقال : « يَا مُعَاذُ : أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ؟ أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ! » قلت : الله ورسوله

(١) سبق تخريجه .

(٢) هو أبو عبد الرحمن : معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي ، أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - ، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبعثه الرسول إلى اليمن قاضيا ومعلما ، له في كتب الحديث ١٥٧ حديثا ، وكان قد ولد بالمدينة سنة (٢٠ ق . هـ / ٦٠٣ م) وتوفي بالأردن سنة (١٨ هـ / ٦٣٩ م) [انظر ترجمته في : ابن سعد ١٢٠/٣ ، والإصابة ٨٠٣٩ ، وأسد الغابة ٣٧٦/٤ ، وحلية الأولياء ٢٢٨/١ وصفة الصفوة ١٩٥/١] الأعلام للزركلي ج ٢٥٨/٧ .

أعلم قال : « حَقُّهُمْ عَلَيْهِ أَنْ لَا يُعْبَدَ بِهِمْ » ^(١) والعبادة هي الغاية التي خلق الله لها العباد من جهة أمر الله ومحبته ورضاه كما قال - تعالى - : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(٢) وبها أرسل الرسل وأنزل الكتب وهي اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته ، وكمال الذل لله ونهايته ، فالحب الخلق عن ذل ، والذل الخلق عن حب لا يكون عبادة ، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين ، ولهذا كانت العبادة لاتصلح إلا لله ، وهي وإن كانت منفعتها للعبد - والله غنى عن العالمين - فهي له من جهة محبته لها ورضاه بها ، ولهذا كان الله أشد فرحاً بتوبة العبد من الفاقدر لراحلته عليها طعامه وشرابه في أرض دوية مهلكة إذا نام آيساً منها ثم استيقظ فوجدها فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته ، وهذا يتعلق به أمور جليلة قد بسطناها وشرحناها في غير هذا الموضع .

والتوكل والاستعانة للعبد ، لانه هو الوسيلة والطريق الذي ينال به مقصوده ومطلوبه من العبادة ، فالاستعانة كاللجوء والمسألة ، وقد روى الطبراني ^(٣) في كتاب الدعاء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « يَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : يَا ابْنَ آدَمَ ! إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعٌ : وَاحِدَةٌ لِي ، وَوَاحِدَةٌ لَكَ ، وَوَاحِدَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، وَوَاحِدَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ خَلْقِي : فَأَمَّا الَّتِي لِي فَتَعْبُدْنِي لِأَتَشْرِكَ بِي شَيْئاً ، وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَكَ فَعَمَلُكَ أَجَارِيكَ بِهِ أَخْرَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ ، وَأَمَّا الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَمِنْكَ الدُّعَاءُ وَعَلَى الْإِجَابَةِ ، وَأَمَّا الَّتِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ خَلْقِي فَأَتِ النَّاسَ مَا تَحِبُّ أَنْ يَأْتُوا إِلَيْكَ » ^(٤)

(١) رواه أحمد (٢٢٨/٥ و ٢٣٠ و ٢٣٤) والشيخان ، والترمذي ، وابن ماجه ، وأوزده الألباني في (صحيح الجامع الصغير) رقم ٧٩٦٨ ج ١٣١٩/٢ .

(٢) الآية : ٥٦ من سورة الذاريات .

(٣) هو أبو القاسم : سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني ، نسبة إلى طيرة الشام ، من كبار المحدثين ، له ثلاثة معاجم في الحديث وله في غيره من المصنفات كثير ولد بعكا (٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م) وجال البلدان ، وتوفي بأصبهان (٣٦٠ هـ / ٩٧١ م) [انظر في ترجمته : وفيات الأعيان ٢١٥/١ ، والنجوم الزاهرة ٥٩/٤ ، وتهذيب ابن عساكر ٢٤٠/٦ ، ومناقب الإمام أحمد ٥١٣] الأعلام للزركلي ج ١٢١/٣ .

(٤) رواه الطبراني عن سلمان ، ولكن الذي وجدته بلفظ : ﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ ، ثَلَاثٌ : وَاحِدَةٌ لِي ، وَوَاحِدَةٌ لَكَ ، وَوَاحِدَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ . فَأَمَّا الَّتِي لِي فَتَعْبُدْنِي لِأَتَشْرِكَ بِي شَيْئاً ، وَأَمَّا الَّتِي لَكَ فَمَا عَمَلْتُ مِنْ خَيْرٍ جَزَيْتَكَ بِهِ ، فَإِنْ أَغْفِرْ فَأَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَمَّا الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَعَلَيْكَ الدُّعَاءُ وَالْمَسْأَلَةُ ، وَعَلَى الْإِجَابَةِ وَالْعَطَاءُ » والحديث في (كنز العمال) رقم ٣١٤٩ ج ٦٢/٢ .

وكون هذا لله وهذا للعبد هو باعتبار تعلق المحبة والرضا ابتداء ، فإن العبد ابتداء يحب ويريد ما يراه ملائما له ، والله - تعالى - يحب ويرضى ما هو الغاية المقصودة في رضاه ، ويجب الوسيلة تبعا لذلك ، وإلا فكل مأمور به فمفئدة عائدة على العبد ، وكل ذلك يحبه الله ويرضاه ، وعلى هذا فالذى ظن أن التوكل من المقامات العامة ظن أن التوكل لا يطلب به إلا حظوظ الدنيا ، وهو غلط ، بل التوكل في الأمور الدينية أعظم .

وأیضا التوكل من الأمور الدينية التي لا تتم الواجبات والمستحبات إلا بها ، والزاهد فيها زاهد فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه .

(و(الزهد المشروع) : هو ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة ، وهو فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله ، كما أن (الورع المشروع) هو ترك ما قد يضر في الدار الآخرة ، وهو ترك المحرمات والشبهات التي لا يستلزم تركها ترك ما فعله أرجح منها ، كالواجبات فأما ما ينفع في الدار الآخرة بنفسه أو يعين على ما ينفع في الدار الآخرة ، فالزهد فيه ليس من الدين ، بل صاحبه داخل في قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَنْهُمْ مُوَطِّئَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا

تَعْتَدُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ^(١) كما أن الاشتغال بفضول المباحات ، هو ضد الزهد المشروع ، فإن اشتغل بها عن فعل واجب أو فعل محرما كان عاصيا ، وإلا كان منقوصا عن درجة المقرين إلى درجة المقتصدین .

(و(أيضا) فإن التوكل هو محبوب لله مرضى له مأمور به دائما ، وما كان محبوبا لله مرضيا له مأمورا به دائما لا يكون من فعل المقتصدین دون المقرين فهذه ثلاثة أجوبة عن قولهم : المتوكل يطلب حظوظه .

وأما قولهم : إن الأمور قد فرغ منها فهذا نظير ما قاله بعضهم في الدعاء : إنه لا حاجة إليه ، لأن المطلوب إن كان مقدرا فلا حاجة إليه وإن لم يكن مقدرا لم ينفع الدعاء ، وهذا القول من أفسد الأقوال شرعا وعقلا .

(١) الآية : ٨٧ من سورة المائدة .

وكذلك قول من قال : التوكل والدعاء لا يجلب به منفعة ولا يدفع به مضرة ، وإنما هو عبادة محضة . وإن حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض ، وهذا وإن كان قاله طائفة من المشائخ فهو غلط أيضا ، وكذلك قول من قال : إن الدعاء إنما هو عبادة محضة .

فهذه الأقوال وما أشبهها يجمعها أصل واحد : وهو أن هؤلاء ظنوا أن كون الأمور مقدرة مقضية يمنع أن تتوقف على أسباب مقدرة - أيضا - تكون من العبد ، ولم يعلموا أن الله - سبحانه - يقدر الأمور ويقضيها بالأسباب التي جعلها معلقة بها في أفعال العباد ، وغير أفعالهم ، ولهذا كان طرد قولهم : (يوجب تعطيل الأعمال بالكلية) .

وقد سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن هذا الأصل مرات فأجاب عنه كما أخرجنا في الصحيحين عن عمران بن حصين ^(١) قال : قيل لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : يارسول الله ! أَعْلِمَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ؟ قال : « نعم » قالوا : فقيم العمل ؟ قال : « كُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ » ^(٢) وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب ^(٣) قال : (كنا في جنازة فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلس ومعه مخضرة ^(٤) فجعل ينكت بالمخضرة في الأرض ثم رفع رأسه وقال : « مَا مِنْ نَفْسٍ مَنفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ النَّارِ أَوِ الْجَنَّةِ ، إِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أَوْ سَعِيدَةٌ .

قال : فقال رجل من القوم : يابني الله ! أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فمن كان من أهل السعادة ليكونن إلى السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن إلى الشقاوة . قال : « اَعْمَلُوا فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ . أَمَّا أَهْلُ

(١) سبقت الترجمة .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) سبقت الترجمة .

(٤) المخضرة كما جاء في (الفتح) ج ٥٠٥/١١ ، هي عصا أو قضيب ، يمسكه الرئيس ليتوكأ عليه ويدفع به عنه ويشير به لما يريد ، وسميت بذلك لأنها تحمل تحت الخصر غالبا للاتكاء عليها ، وفي اللغة اختصر الرجل : إذا أمسك الخضرة .

السَّعَادَةُ فَيُسْرُونَ لِلْسَّعَادَةِ وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُسْرُونَ لِلشَّقَاوَةِ » ثم قال نبي الله - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ ﴿١٠﴾ ﴾ (١) أخرجه الجماعة في الصحيح والسنن والمسانيد .

وروى الترمذى (٢) : أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - سئل فقيل : يا رسول الله : أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورُقَى نسترقى بها ، وتُقَى نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئا ؟ فقال : « هي من قدر الله » (٣) .
وقد جاء هذا المعنى عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في عدة أحاديث .

فبين - صلى الله عليه وآله وسلم - أن تقدم العلم والكتاب بالسعيد والشقى لاينافى أن تكون سعادة هذا بالأعمال الصالحة ، وشقاوة هذا بالأعمال السيئة ، فإنه - سبحانه - يعلم الأمور على ما هي عليه ، وكذلك يكتبها ، فهو يعلم أن السعيد يسعد بالأعمال الصالحة ، والشقى يشقى بالأعمال السيئة ، فمن كان سعيدا يسر للأعمال التي تقتضى السعادة ، ومن كان شقيا يسر للأعمال التي تقتضى الشقاوة ، وكلاهما يسر لما خلق له ، وهو ما يصير إليه من مشيئة الله العامة الكونية التي ذكرها الله - سبحانه - في كتابه في قوله تعالى - : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ مُمْلِكِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (٤) .
وأما ما خلقوا له من محبة الله ورضاه - وهو إرادته الدينية التي أمروا بموجبها - فذلك مذكور في قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥) .

والله - سبحانه - قد بين في كتابه في كل واحدة من (الكلمات) ، و(الأمر) ، و(الإرادة) ، و(الإذن) ، و(الكتاب) ، و(الحكم) ، و(القضاء) ،

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبقت الترجمة .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) جزء من الآيتين : ١١٨ و ١١٩ من سورة هود .

(٥) الآية : ٥٦ من سورة النازيات .

و(التحريم) ، ونحو ذلك ماهو دينى موافق لمحبة الله ورضاه وأمره الشرعى ،
وماهو كونى موافق لمشيئته الكونية .

مثال ذلك أنه قال فى (الأمر الدينى) : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
وَالِاتِّقَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ
إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ ^(٢) ونحو ذلك .

وقال فى (الكونى) : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ﴾ ^(٣) وكذلك قوله : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا
فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ ^(٤) على إحدى الأقوال فى هذه الآية .

وقال فى (الإرادة الدينية) : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ
الْعُسْرَ﴾ ^(٥) ، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا﴾ ^(٦) ، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ
عَلَيْكُمْ مِنْ حَرْجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ ^(٧) .

وقال فى (الإرادة الكونية) : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنْ اللَّهُ يُعَلِّمُ
مَا يُرِيدُ﴾ ^(٨) ، وقال : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ
يُرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ^(٩)
وقال نوح - عليه السلام - : ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ
اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ ^(١٠) وقال - تعالى - : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ
يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ^(١١) .

(١) جزء من الآية : ٩٠ من سورة النحل .

(٢) جزء من الآية : ٥٨ من سورة النساء .

(٣) الآية : ٨٢ من سورة يس .

(٤) جزء من الآية : ١٦ من سورة الإسراء .

(٥) جزء من الآية : ١٨٥ من سورة البقرة .

(٦) الآية : ٢٦ من سورة النساء .

(٧) جزء من الآية : ٦ من سورة المائدة .

(٨) جزء من الآية : ٢٥٣ من سورة البقرة .

(٩) جزء من الآية : ١٢٥ من سورة الأنعام .

(١٠) جزء من الآية : ٣٤ من سورة هود .

(١١) الآية : ٨٢ من سورة يس .

وقال - تعالى - في (الإذن الديني) : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَسِيقِينَ ﴾ ^(١).

وقال - تعالى - في (الكوني) : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ^(٢).

وقال - تعالى - في (القضاء الديني) : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ^(٣) أى : أُمِر .

وقال - تعالى - في (الكوني) : ﴿ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ^(٤).

وقال - تعالى - في (الحكم الديني) : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ ^(٥) وقال - تعالى - : ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ ^(٦).

وقال - تعالى - في (الكوني) عن ابن يعقوب : ﴿ فَلَنْ أُنْبِرَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ^(٧) وقال - تعالى - : ﴿ قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ^(٨).

وقال في (التحريم الديني) : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ ﴾ ^(٩) : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ ^(١٠) الآية .

(١) الآية : ٥ من سورة الحشر .

(٢) جزء من الآية : ١٠٢ من سورة البقرة .

(٣) جزء من الآية : ٢٣ من سورة الإسراء .

(٤) جزء من الآية : ١٢ من سورة فصلت .

(٥) جزء من الآية الأولى من سورة المائدة .

(٦) جزء من الآية : ١٠ من سورة الممتحنة .

(٧) جزء من الآية : ٨٠ من سورة يوسف .

(٨) الآية : ١١٢ من سورة الأنبياء .

(٩) جزء من الآية : ٣ من سورة المائدة .

(١٠) جزء من الآية : ٢٣ من سورة النساء .

وقال - تعالى - في (التحريم الكوني) : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾^(١) وقال - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾^(٢)

وقال - تعالى - في (الكلمات الدينية) : ﴿ وَإِذْ أُنْتَبِئَ إِبْرَاهِيمُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾^(٣) .

وقال - تعالى - في (الكونية) : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾^(٤) .

ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم -^١ المستفيض عنه من وجوه في الصحاح والسنن و المسانيد أنه كان يقول في استعاذته : « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يَجَاوِرُهَا بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ »^(٥) ومن المعلوم أن هذا هو الكوني الذي لا يخرج منه شيء عن مشيئته وتكوينه ، وأما الكلمات الدينية فقد خالفها الفجار بمعصيته .

والمقصود هنا : أنه - صلى الله عليه وسلم - بين أن العواقب التي خلق لها الناس من سعادة وشقاوة يسرون لها بالأعمال التي يصيرون بها إلى ذلك ، كما أن سائر المخلوقات كذلك فهو - سبحانه - يخلق الولد وسائر الحيوان في الأرحام بما يقدره من اجتماع الأبوين على النكاح ، واجتماع المائتين في الرحم ، فلو قال الإنسان : أنا أتوكل ولا أطأ زوجتي ، إذا وطئ وعزل الماء ، فإن عزل الماء لا يمنع انعقاد الولد إذا شاء الله ، إذ قد يسبق الماء بغير اختياره .

(١) جزء من الآية : ٢٦ من سورة المائدة .

(٢) ، الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ من سورة المعارج .

(٣) جزء من الآية : ١٢٤ من سورة البقرة .

(٤) جزء من الآية : ١٣٧ من سورة الأعراف .

(٥) رواه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والبخاري ، والحسن بن سفيان ، وأبو زرعة في مسنده ، وابن منده ، وأبو نعيم ، والبيهقي ، قال صاحب (كنز العمال) : « وهو صحيح (حديث رقم ٥٠١٨ ج ٢/١٦٥) ، وفيه (٩٣٨ ج ٢/٢٦٥) أنه من مراسيل مكحول الشامي : أبو عبدالله الفقيه الدمشقي : روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - رسلاً وعن بعض الصحابة - رضي الله عنهم - ، وذكره ابن سعد في الطبقة الثالثة من تابعي أهل الشام ، توفي سنة ١١٣ هـ (راجع ميزان الاعتدال للذهبي ١٧٧/٤) وتهذيب التهذيب لابن حجر ٢٨٩/١٠ .

ومن هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ^(١) قال : خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في غزوة بني المصطلق فأصبنا سبيًا من العرب فاشتبهنا النساء ، واشتدت علينا العزبة ، وأحببنا العزل ، فسألنا عن ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « مَا عَلَيْكُمْ إِلَّا تَفْعَلُوا فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ كَتَبَ مَا هُوَ خَالِقٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ^(٢) ، وفي صحيح مسلم عن جابر ^(٣) أن رجلاً أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : إن لي جارية هي خادمتنا وسانيتنا ^(٤) في النخل ، وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل فقال : « اغْرُلْ عَنْهَا إِنْ شِئْتَ فَإِنَّهُ سَيَأْتِيهَا مَا قَدَّرَ لَهَا » ^(٥) .

وهذا مع أن الله - سبحانه - قادر على ما قد فعله من خلق الإنسان من غير أبوين كما خلق آدم ، ومن خلقه من أب فقط ، كما خلق حواء من ضلع آدم القصير ، ومن خلقه من أم فقط كما خلق المسيح بن مريم - عليه السلام - لكن خلق ذلك بأسباب أخرى غير معتادة .

وهذا الموضع وإن كان إنما يجحده الزنادقة المعطلون للشرائع فقد وقع في كثير من دقه كثير من المشايخ العظمين ، يسترسل أحدهم مع القدر غير محقق لما أمر به

(١) سبقت الترجمة .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم (١٥٩/٤) ، وأحمد (١١/٣) و ٢٢ و ٤٩ و ٥٣ و ٦٨ و ٧٨ و ٤٥٠) ، وابن ماجه ، وأبو داود (٢١٧٠ و ٢١٧١) عن أبي سعيد ، وأطراف الروايات المختلفة للحديث منها : « أو أنكم تفعلون ذلك ؟ » ومنها « لا عليكم أن لا تفعلوا » ومنها « إنكم لتفعلون ذلك » كما رواه الطبراني عن حذيفة ، ومنها « اصنعوا ما بدا لكم » كما في إحدى روايات أحمد . والحديث أخرجه النسائي كذلك (٨٤/٢ ، ٨٥) وقد أوردته الألباني في (صحيح الجامع الصغير) برقم ١٠٣٢ ج ٢/٣ .

(٣) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي : من الصحابة الغزاة ، غزا تسع عشرة غزوة ، ومن أفقههم بحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - روى له البخارى ومسلم وغيرهما ١٥٤٠ حديثا ، ولد سنة (١٦ ق . هـ / ٦٠٧ م) وتولى سنة (٧٨ هـ / ٦٩٧ م) [انظر ترجمته في : الإصابة ٢١٣/١ ، وتهذيب الأسماء ١٤٢/١ ، وذيل المنيل ٢٢] الأعلام للزركلي ج ٢/١٠٤ .

(٤) سانيتها : أى التى تسقى لنا النخل .

(٥) رواه مسلم (١٦٠/٤) ، وأبو داود (٣٣٩/١) ، والبيهقى (٢٢٩/٧) ، وأحمد (٣١٢/٣) و (٣٨٦) ، وأورده الألباني في (آداب الزفاف) ص ١٣١ .

ونهى عنه ، ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل ، والجري مع الحقيقة القدريّة ، وبحسب أن قول القائل : ينبغي للعبد أن يكون مع الله كالميت بين يدي الغاسل . يتضمن ترك العمل بالامر والنهي حتى يترك ما أمر به ، ويفعل ما نهى عنه ، وحتى يضعف عنده النور والفرقان الذي يفرق به بين ما أمر الله به وأحبه ورضيه ، وبين ما نهى عنه وأبغضه وسخطه فيسوى بين ما فرق الله بينه ، كما قال تعالى - : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ^(١) وقال تعالى - : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ ^(٢) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ^(٣) وقال تعالى - : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ ^(٤) وقال - تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٥) وقال - تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١١﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿١٢﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿١٣﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ ^(٦) وأمثال ذلك .

حتى يفضي الأمر بعلامتهم إلى عدم التمييز بين الأمر بالمأمور النبوي الإلهي الفرقاني الشرعي الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وبين ما يكون في الوجود من الأحوال التي تجري على أيدي الكفار والفجار ، فيشهدون وجه الجمع من جهة كون الجميع بقضاء الله وقدره وربوبيته وإرادته العامة ، وأنه داخل في ملكه ، ولا يشهدون وجه الفرق الذي فرق الله به بين أوليائه وأعدائه ، والأبرار

(١) الآية : ٢١ من سورة الجاثية .

(٢) الأيتان : ٣٥ ، ٣٦ من سورة القلم .

(٣) الآية : ٢٨ من سورة ص .

(٤) جزء من الآية ٩ من سورة الزمر .

(٥) الآيات : ١٩ - ٢٢ من سورة فاطر .

والفجار ، والمؤمنين والكافرين ، وأهل الطاعة الذين أطاعوا أمره الدينى ، وأهل المعصية الذين عصوا هذا الأمر ويستشهدون فى ذلك بكلمات مجملة نقلت عن بعض الأشياء ، أو ببعض غلطات بعضهم .

وهذا (أصل عظيم) من أعظم ما يجب الاعتناء به على أهل طريق الله السالكين سبيل الإرادة : إرادة الذين يريدون وجهه ، فإنه قد دخل بسبب إهمال ذلك على طوائف منهم من الكفر والفسوق والعصيان ما لا يعلمه إلا الله ، حتى يصيروا معاونين على البغى والعدوان للمسلطين فى الأرض من أهل الظلم والعلو ، كالذين يتوجهون بقلوبهم فى معاونته من يَهْوُوْنَهُ من أهل العلو فى الأرض والفساد ظانين أنهم إذا كانت لهم أحوال أثروا بها فى ذلك كانوا بذلك من أولياء الله - فإن القلوب لها من التأثير أعظم مما للأبدان لكن إن كانت صالحة كان تأثيرها صالحا ، وإن كانت فاسدة كان تأثيرها فاسدا ، فالأحوال يكون تأثيرها محبوبا لله تارة ، ومكروها لله أخرى ، وقد تكلم الفقهاء على وجوب القَوْد على من يقتل غيره فى الباطن حيث يجب القود فى ذلك - ويستشهدون ببواطنهم وقلوبهم الأمر الكونى ، ويعلمون مجرد خرق العادة لأحدهم بكشف يكشف له أو بتأثير يوافق إرادته هو كرامة من الله له ، ولا يعلمون أنه فى الحقيقة إهانة ، وأن الكرامة لزوم الاستقامة ، وأن الله لم يكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه ، وهو طاعته وطاعة رسوله وموالة أوليائه ومعاداة أعدائه وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم : ﴿الْآيَاتُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١)

فإن كانوا موافقين فيما أوجبه عليهم فهم من المقتصدين ، وإن كانوا موافقين فيما أوجبه وأحبه فهم من المقربين ، مع أن كل واجب محبوب وليس كل محبوب واجبا ، وأما ما يتلى الله به عبده من السراء بخرق العادة أو بغيرها ، أو بالضراء فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ، ولا هوانه عليه ، بل قد يسعد بها قوم إذا أطاعوه فى ذلك ، وقد يشقى بها قوم إذا عصوه فى ذلك .

(١) الآية : ٦٤ من سورة يونس .

قال الله - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ۝ ﴾ (١٦) كَلَّا ۖ ^(١) ولهذا كان الناس في هذه الأمور على (ثلاثة أقسام) .

(قسم) ترتفع درجاتهم بخرق العادة إذا استعملوها في طاعة الله .

و(قوم) ^(٢) يتعرضون بها لعذاب الله إذا استعملوها في معصية الله كبلعام ^(٣) .

و(قوم) تكون في حقهم بمنزلة المباحات .

والقسم الأول هم المؤمنون حقاً ، المتبعون لنبيهم سيد ولد آدم الذي إنما كانت خوارقه لحجة يقيم بها دين الله ، أو لحاجة يستعين بها على طاعة الله ولكثرة الغلط في هذا الأصل نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الاسترسال مع القدر بدون الحرص على فعل المأمور الذي ينفع العبد ، فروى مسلم ^(٤) في صحيحه عن أبي هريرة ^(٥) قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير . احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » ^(٦) .

وفي سنن أبي داود : أن رجلين اختصما إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقضى علي أحدهما ، فقال المقضى عليه : حسبي الله ونعم الوكيل . فقال رسول

(١) الأيتان : ١٥ ، ١٦ وأول الآية : ١٧ من سورة الفجر .

(٢) القوسان من وضعنا ، وكذلك ما يأتي .

(٣) بلعام بن باعور : الذي نزل فيه قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ الآية ١٧٥ من سورة الأعراف .. وقال ابن عباس وغيره : إنه كان يعلم الاسم الأعظم وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى والمؤمنين ، وفي ذلك قصة طويلة : ذكرها ابن إسحق ، وابن كثير في (التفسير) ٣/ ٢٥٠ - ٢٥٥ ، وقال في (البداية والنهاية) ١/ ٣٠٠ : (وهذا الذي ذكره ابن إسحاق من قصة بلعام صحيح ذكره غير واحد من علماء السلف) .

(٤ ، ٥) سبقت الترجمة .

(٦) سبق تخريجه .

الله - صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَسِيسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » ^(١) فأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - المؤمن أن يحرص على ما ينفعه وأن يستعين بالله ، وهذا مطابق لقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ^(٢) وقوله تعالى : ﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ ^(٣) فإن الحرص على ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته ، إذ النافع له هو طاعة الله ولا شيء أنفع له من ذلك ، وكل ما يستعان به على الطاعة فهو طاعة وإن كان من جنس المباح .

قال النبي - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح لسعد ^(٤) : « إِنَّكَ لَنْ تُتَفَقَّ نَفَقَةً تُبْتَغَى بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَرْدَدْتَ بِهَا دَرَجَةً وَرِفْعَةً حَتَّى الَّلُقْمَةَ تَضَعُهَا فِي فِي أَمْرَاتِكَ » ^(٥) فأخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الله يلوم على العجز الذي هو ضد الكيس ، وهو التفريط فيما يؤمر بفعله ، فإن ذلك يناقض القدرة المقارنة للفعل . وإن كان لا يناقض القدرة المتقدمة التي هي مناط الأمر والنهي .

فإن الاستطاعة التي توجب الفعل تكون مقارنة له ولا تصلح إلا لمقذورها ، كما

(١) سبق تخريجه .

(٢) الآية : ٥ من سورة الفاتحة .

(٣) الآية : ١٢٣ من سورة هود .

(٤) هو أبو إسحاق : سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري : فارس الإسلام فاتح العراق ومدائن كسرى ، ومؤسس الكوفة ، أول من رمى بسهم في سبيل الله ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، أسلم وهو ابن ١٧ سنة ، وشهد بدرًا وغيرها ، ولد بمكة سنة (٣٣ ق . هـ / ٦٠٠ م) وتوفي بالعقيق قرب المدينة (٥٥ هـ / ٦٧٥ م) ودفن بالمدينة ، له في كتب الأحاديث ٢٧١ حديثًا [انظر ترجمته في : التهذيب ٤٨٣/٣ ، وصفة الصفوة ١٣٨/١ ، وحلية الأولياء ٩٢/١ والإصابة ٣١٨٧ وغيرها] الأعلام للزركلي ٨٧/٣ .

(٥) رواه البخاري (١٨٥/٢) و (٤٨٥/٣) ، ومسلم (٧١/٥) ، والنسائي (١٢٦/٢) ، وأحمد (١٧٢/١) ، وأبو داود (٢٨٦٤) ، والترمذي (١٥/٢) ، وابن ماجه (٢٧٠٨) ، ومالك (٤/٧٦٣/٢) ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وقد خرجه الألباني في (إرواء الغليل) برقم ٨٩٩ ج ٤١٦/٣ وطرف الحديث : (الثلاث والثلاث كثير) .

ذكرها الله - تعالى - في قوله : ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ ^(١) وفي قوله : ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ ^(٢) وأما الاستطاعة التي يتعلق بها الأمر والنهى فتلك قد يقترب بها الفعل وقد لا يقترب ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ ^(٣) وقول النبي - صلى الله عليه وسلم - لعمران بن الحصين ^(٤) « صَلِّ قَائِمًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَعْلَى جَنْبٍ » ^(٥) .

فهذا الموضع قد انقسم الناس فيه إلى (أربعة أقسام) :

* قوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهى والعبادة والطاعة شاهدين لإلهية الرب - سبحانه - الذى أمروا أن يعبدوه ، ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة ، وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة ، فهم من حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله ولشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان ؛ لأن الاستعانة بالله والتوكل عليه ، واللجأ إليه والدعاء له هى التى تقوى العبد وتيسر عليه الأمور .

ولهذا قال بعض السلف : من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، وفي الصحيحين عن عبدالله بن عمرو ^(٦) « أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صفة فى التوراة : إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأمين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب بالأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يجزى بالسيئة الحسنة ، ويعفو ويغفر

(١) جزء من الآية : ٢٠ من سورة هود .

(٢) جزء من الآية : ١٠١ من سورة الكهف .

(٣) جزء من الآية : ٩٧ من سورة آل عمران .

(٤) سبقت الترجمة .

(٥) رواه البخارى (٢٨٣/١) ، وكذا أبو داود (٩٥٢) ، والترمذى (٢٠٨/٢) ، وابن ماجه (١٢٢٣) ، والدارقطنى (١٤٦) ، والبيهقى (٣٠٤/٢) ، وأحمد (٤٢٦/٤) ، والنسائى (٢٤٥/١) ، وقد خرجه الألبانى فى (إرواء الغليل) حديث رقم ٢٩٩ ج ٨/٢ .

(٦) سبقت الترجمة .

ولن أقبضه حتى أقم به الملة العوجاء ، فأفتح به أعينا عميا ، وآذانا صمًا وقلوبا غلفا بان يقولوا : لا إله إلا الله ^(١) .

ولهذا روى أن حملة العرش إنما أطاقوا حمل العرش بقولهم : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم : « أَنَّهَا كُنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ » ^(٢) قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ^(٣) وقال - تعالى :- ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ^(٤) إلى قوله :

﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٥) وفي صحيح البخارى ^(٦) عن ابن عباس - رضى الله عنه - فى قوله : ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم الخليل حين القى فى النار وقالها محمد - صلى الله عليه وسلم - حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم ^(٧) .

* (قسم ثان) : يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم إليه ويستعينون به لكن على أهوائهم وأذواقهم ، غير ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيه ورضاه وعضبه ومحبهه ، هذا حال كثير من المتفكرة ^(٨) والمتصوفة : ولهذا كثيرا ما يعملون على الأحوال التى يتصرفون بها فى الوجود ، ولا يقصدون ما يرضى الرب ويحبه ، وكثيرا ما يغلطون فيظنون أن معصيته هى مرضاته فيعودون إلى تعطيل الأمر والنهى

(١) رواه البخارى فى (كتاب البيوع) رقم ٥٠ ، الحديث رقم ٢١٢٥ من (فتح البارى) ج ٤/٤٠٢ ، وأورده أيضا فى (كتاب التفسير) باب (إننا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) الحديث رقم ٤٨٣٨ من (الفتح) ج ٤٤٩/٨ .

(٢) رواه البخارى فى (كتاب الدعوات) باب (الدعاء إذا علا عقبة) وهو فى (فتح البارى) رقم ٦٣٨٤ ج ١٩١/١١ ، وكذا رواه مسلم فى (كتاب الذكر) باب (فى رفع الصوت بالذكر) (٧٣/٨) وهو فى (مختصر صحيح مسلم للمنبرى) برقم ١٨٩٣ ص ٥٠٠ وطرف الحديث (أيما الناس أربعوا على أنفسكم) .

(٣) جزء من الآية : ٣ من سورة الطلاق .

(٤) الآية : ١٧٣ من سورة آل عمران .

(٥) جزء من الآية : ١٧٥ من نفس السورة .

(٦) سبق الترجمة .

(٧) سبق تخريجه .

(٨) المتفكرة : هم جماعة الصوفية الذين يطلقون على أنفسهم اسم (الفقراء) .

ويسمون هذا حقيقة ، ويظنون أن هذه الحقيقة القدريية يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية التي هي تحوى مرضاة الرب ومحبتة وأمره ونبيه ظاهراً وباطناً .

وهؤلاء كثيرا مايسلبون أحوالهم ، وقد يعودون إلى نوع من المعاصي والفسوق ، بل كثير منهم يرتد عن الإسلام لأن العاقبة للتقوى ، ومن لم يقف عند أمر الله ونبيه فليس من المتقين ، فهم يقعون في بعض مآقع المشركون فيه تارة في بدعة يظنونها شرعة ، وتارة في الاحتجاج بالقدر على الأمر ، والله - تعالى - لما ذكر مآذم به المشركين في سورة الأنعام والأعراف ذكر ما ابتدعه من الدين وجعلوه شرعة كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنِّي أَمَرْتُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ ﴾ ^(١) وقد ذمهم على أن حرموا ما لم يحرمه الله ، وأن شرعوا ما لم يشرعه الله ، وذكر احتجاجهم بالقدر في قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُ آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ۚ ﴾ ^(٢) ونظيره في (النحل) و(يس) و(الزخرف) وهؤلاء يكون فيهم شبه من هذا وهذا .

* وأما (القسم الثالث) : وهو من أعرض عن عبادة الله واستعانت به ، فهؤلاء شر الأقسام .

* و(القسم الرابع) هو القسم المحمود ، وهو حال الذين حققوا ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ^(٣) وقوله : ﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ ﴾ ^(٤) فاستعانوا به على طاعته ، وشهدوا أنه إلههم الذى لا يجوز أن يعبد إلا إياه بطاعته وطاعة رسوله ، وأنه ربهم الذى ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ ^(٥) وأنه ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ ﴾ ^(٦) وَلَئِنْ

(١) جزء من الآية ٢٨ من سورة الأعراف . (٤) جزء من الآية : ١٢٣ من سورة هود .

(٢) جزء من الآية : ١٤٨ من سورة الأنعام . (٥) جزء من الآية : ٥١ من سورة الأنعام .

(٣) الآية : ٥ من سورة الفاتحة . (٦) جزء من الآية : ٢ من سورة فاطر .

يَمَسِّسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِضُرٍّ فَلَا رَادَّ
لِفَضْلِهِ^(١) ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ
هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ رَحْمَتِهِ^(٢)﴾ .

ولهذا قال طائفة من العلماء : الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو
الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح
في الشرع ، وإنما التوكل المأمور به ما جتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل
والشرع .

فقد تبين أن من ظن التوكل من مقامات عامة أهل الطريق فقد غلط غلطا
شديدا ، وإن كان من أعيان المشائخ - كصاحب (علل المقامات)^(٣) - وهو من
أجل المشائخ ، وأخذ ذلك عنه صاحب (محاسن المجالس)^(٤) وظهر ضعف حجة
من قال ذلك لظنه أن المطلوب به حظ العامة فقط ، وظنه أنه لا فائدة له في تحصيل
المقصود ، و هذه حال من جعل الدعاء كذلك ، وذلك بمنزلة من جعل الأعمال
المأمور بها كذلك ، كمن اشتغل بالتوكل عن ما يجب عليه من الأسباب التي هي
عبادة و طاعة مأمور بها ، فإن غلط هذا في ترك الأسباب المأمور بها التي هي
داخلية في قوله - تعالى - : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ^(٥)﴾ كغلط الأول في ترك
التوكل المأمور به الذي هو داخل في قوله - تعالى - : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ
عَلَيْهِ^(٥)﴾ .

لكن يقال : من كان توكله على الله ودعاؤه له هو في حصول مباحات فهو
من العامة ، وإن كان في حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة ، كما أن من
دعاه وتوكل عليه في حصول محرمات فهو ظالم لنفسه ، ومن أعرض عن التوكل
فهو عاص لله ورسوله ، بل خارج عن حقيقة الإيمان ، فكيف يكون هذا المقام

(١) جزء من الآية : ١٠٧ من سورة يونس . (٢) جزء من الآية : ٣٨ من سورة الزمر .

(٣) هو شيخ الإسلام : عبدالله بن محمد بن علي الهروي الحنبلي ، المتوفى في سنة ٤٨١ هـ .

(٤) هو أبو العباس بن عريف أحمد بن محمد الصنهاجي الأندلسي المعروف بابن العريف ، المتوفى سنة

٥٣٦ هـ .

(٥) جزء من الآية : ١٢٣ من سورة هود

للخاصة ، قال الله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُقَوْمُ إِن كُنتُمْ ءَامَنُكُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴾ ^(١) وقال - تعالى - : ﴿ إِن يَنْصُرْكُمْ اللّٰهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذَلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنۢ بَعْدِهِ ﴾ ^(٢) وقال - تعالى - : ﴿ وَعَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٣) وقال - تعالى - : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَاتَدْعُونَ مِن دُونِ اللّٰهِ إِنِ ارَادَنِی اللّٰهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّی ﴾ ^(٤) إلى قوله : ﴿ قُلْ حَسْبِی اللّٰهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ^(٥) .

وقد ذكر الله هذه الكلمة (حسبى الله) فى جلب المنفعة تارة ، وفى دفع المضرة أخرى (فالأولى) : فى قوله - تعالى - : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّٰهُ سَيُؤْتِينَا اللّٰهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ ^(٦) الآية .
(الثانية) فى قوله : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّٰهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ^(٧) وفى قوله - تعالى - : ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّٰهُ هُوَ الَّذِیۡ أَيْدَكَ بِصِرِّهِۦ ﴾ ^(٨) وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّٰهُ سَيُؤْتِينَا اللّٰهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ ^(٩) يتضمن الأمر بالرضا والتوكل .

(١) الآية : ٨٤ من سورة يونس .

(٢) جزء من الآية : ١٦٠ من سورة آل عمران .

(٣) ذكرت ست مرات فى القرآن الكريم فى الآية ١٢٢ من سورة آل عمران ، والآية ١٦٠ منها والآية ١١ من سورة المائدة . والآية ٥١ من سورة التوبة ، والآية ١١ من سورة إبراهيم ، والآية ١٢ منها والآية ١٠ من سورة المجادلة ، والآية ١٣ من سورة التغاين .

(٤) جزء من الآية : ٣٨ من سورة الزمر

(٥) جزء من الآية : نفسها من سورة الزمر

(٦) جزء من الآية : ٥٩ من سورة التوبة .

(٧) الآية : ١٧٣ من سورة آل عمران .

(٨) جزء من الآية : ٦٢ من سورة الأنفال .

(٩) جزء من الآية : ٥٩ من سورة التوبة .

والرضا والتوكل يكتنفان المقدور ، فالتوكل قبل وقوعه . والرضا بعد وقوعه ، ولهذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول في الصلاة : « اللَّهُمَّ يَعْلَمُكَ الْغَيْبُ وَيَقْدِرُكَ عَلَى الْخَلْقِ أُخِينِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَقَّئِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْقُذُ ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ ، وَأَسْأَلُكَ الشُّوقَ إِلَى لِقَائِكَ مِنْ غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِرِزْقِكَ الْإِيمَانَ ، وَاجْعَلْنَا هَذَاهُ مُهْتَدِينَ » ^(١) رواه أحمد ^(٢) ، والنسائي ^(٣) ، من حديث عمار بن ياسر ^(٤) .

وأما ما يكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لاحقية الرضا ، ولهذا كان طائفة من المشائخ يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء ، فإذا وقع انفسخت عزائمهم كما يقع نحو ذلك في الصبر وغيره كما قال - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ ^(١) وقال - تعالى - : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ ﴾ ^(٢) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصِينَ ^(٣) نزلت هذه الآية لما قالوا : لو علمنا أى الأعمال أحب إلى الله لعملناه ، فأنزل الله - سبحانه وتعالى - آية الجهاد فكرهه من كرهه .

(١) ورواه الحاكم عن عمار (٥٢٤/١) ، وصححه الألبانى في (صحيح الجامع الصغير) رقم ١٣٠١ ج ٢٧٩/١ .

(٢) سبقت الترجمة .

(٣) أبو اليقظان : عمار بن ياسر بن عامر الكنانى المذحجي العنسى القحطاني : الصحابى الجليل أحد السابقين إلى الإسلام المجاهدين به ، هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا وأُحُدًا والخندق وبيعة الرضوان ، باني مسجد قباء (أول مسجد في الإسلام) ، ولد بمكة سنة (٥٧ ق . هـ / ٥٦٧ م) واستشهد في (صفين) عن ثلاث وتسعين سنة (٣٧ هـ / ٦٥٧ م) ، وله في كتب الحديث ٦٢ حديثًا [انظر ترجمته في : الاستيعاب بهامش الإصابة ٤٦٩/٢ ، والإصابة ٥٧٠٦ ، وحلية الأولياء ١٣٩/١ ، وصفة الصفة ١٧٥/١] الأعلام للزركلى ج ٣٦/٥ . (٤) الآية : ١٤٣ من سورة آل عمران . (٥) الآيات : ٢ - ٤ من سورة الصف .

ولهذا كره للمرء أن يتعرض للبلاء بأن يوجب على نفسه مالا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك ، أو يطلب ولاية ، أو يقدم على بلد فيه طاعون . كما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه نهي عن النذر ، وقال : « إِنْ لَأَيَّاتِي بِخَيْرٍ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ » ^(١) وثبت عنه في الصحيحين أنه قال لعبد الرحمن بن سمرة ^(٢) : « لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنَتْ عَلَيْهَا ، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَأَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ » ^(٣) . وثبت عنه في الصحيحين أنه قال في الطاعون : « إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ » ^(٤) . وثبت عنه في الصحيحين أنه قال : « لَا تَتَمَتَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَلَكِنْ إِذَا لَقِيتُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ » ^(٥) وأمثال ذلك مما يقتضي أن الإنسان لا ينبغي له أن يسعى فيما يوجب عليه أشياء ويحرم عليه أشياء فيدخل بالوفاء ، كما يفعل كثير ممن يعاهد الله عهدا على أمور ، وغالب هؤلاء يتلون بنقض العهود .

(١) سبق تخريجه .

(٢) هو أبو سعيد : عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس القرشي ، أسلم يوم فتح مكة وشهد غزوة مؤتة وكان من القادة الفاتحين لبلاد فارس ، وولى سجستان مدة وسكن البصرة التي توفي فيها (٥٠٠ هـ / ٦٧٠ م) له في كتب الحديث ١٤ حديثا [انظر في ترجمته : تهذيب التهذيب ١٩٠/٦ والإصابة ٥١٢٥ ، والجمع بين رجال الصحيحين ٢٨٢] الأعلام للزركلي ٣٠٧/٣ .

(٣) رواه البخاري (٢٥٨/٤) و٢٨١ و٢٨٦ (مسلم ٨٦/٥) ، وأبو داود (٣٢٧٧) ، وأحمد (٦١/٥ - ٦٣) ، والبيهقي ، والنسائي ، والترمذي ، والدارمي ، والطبراني ، وابن الجارود ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وخرجه الألباني في (إرواء الغليل) برقم ٢٠٨٤ ج ١٦٧/٧ .

(٤) رواه أحمد ، والشيخان ، والنسائي عن أسامة بن زيد ، ورواه أحمد ، والشيخان عن عبد الرحمن بن عوف ورواه أبو داود عن ابن عباس وأورده الألباني في (صحيح الجامع الصغير) برقم ٦١٦ ج ١٦٧/١ .

(٥) رواه الشيخان عن أبي هريرة وهو في (فتح الباري) الأحاديث أرقام ٣٠٢٤ و٣٠٢٥ و٣٠٢٦ ، باب (لا تمتوا لقاء العدو) من كتاب (الجهاد والسير) ج ١٨٠/٦ ، ورواه أحمد (٥٢٣/٢) ، كذا رواه أبو داود (كتاب الجهاد) ، والترمذي (الدعوات) ، وابن ماجه (الدعاء) ، والدارمي (السير) .

* وتطرق شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - رحمه الله - أيضا إلى إيضاح معنى التوكل في معرض حديثه عن كتاب (فتوح الغيب) لعبد القادر الجيلاني ، حيث قال (٤٩٠ - ٤٩٣ / ١٠) :

قال (الشيخ عبد القادر) ^(١) - قدس الله روحه - (أفَنَ عن الخلق بحكم الله ، وعن هواك بأمره ، وعن إرادتك بفعله ، فحينئذ يصلح أن تكون وعاء لعلم الله) .

قلت : فحكمه يتناول خلقه وأمره ، أى : أفن عن عبادة الخلق والتوكل عليهم بعبادة الله والتوكل عليه ، فلا تطعمهم في معصية الله تعالى ، ولا تتعلق بهم في جلب منفعة ولادفع مضرة وأما الفناء عن الهوى بالأمر ، وعن الإرادة بالفعل بأن يكون فعله موافقا للأمر الشرعى لا لهواه ، وأن تكون إرادته لما يخلق تابعة لفعل الله لا لإرادة نفسه ، فالإرادة تارة تتعلق بفعل نفسه وتارة بالمخلوقات .

(فالأول) يكون بالأمر . و(الثانى) لا تكون له إرادة ولا بد في هذا أن يقيد بأن لا تكون له إرادة لم يؤمر بها ، وإلا فإذا أمر بأن يريد من المقدورات شيئا دون شيء فليرد ما أمر بإرادته سواء كان موافقا للقدر أم لا ، وهذا الموضع قد يغلط فيه طائفة من السالكين . والغالب على الصادقين منهم أنهم لم يعرفوا الإرادة الشرعية في ذلك المعين ، وهم ليس لهم إرادة نفسانية فتركوا إرادتهم لغير المقدور .

قال الشيخ : « فعلامة فنائك عن خلق الله انقطاعك عنهم وعن التردد إليهم مما في أيديهم » وهو كما قال .

فإذا كان القلب لا يرجوهم ، ولا يخافهم ، لم يتردد إليهم لطلب شيء منهم ، وهذا يشبه بما يكون مأمورا به من المشى إليهم لأمرهم بما أمر الله به ، ونهيبهم عما

(١) هو الشيخ أبو محمد ، محيي الدين الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي : عبد القادر بن موسى بن عبد الله ابن حنكي دوست الحسيني : مؤسس الطريقة القادرية من كبار الزهاد المتصوفين ولد في جيلان - وراء طبرستان - سنة (٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م) وانتقل إلى بغداد سنة (٤٨٨ هـ) وبرع في الوعظ ، وتفقه ، وسمع الحديث واشتهر ، وتصدر للتدريس والإفتاء ببغداد سنة (٥٢٨ هـ) وتوفي بها (٥٦١ هـ / ١١٦٦ م) [انظر في ترجمته : النجوم الزاهرة ٣٧١/٥ ، طبقات الشعرائي ١٠٨/١ - ١١٤ ، وفوات الوفيات ٢/٢ وشذرات الذهب ١٩٨/٤] / الأعلام للزركلي ٤٧/٤ .

نهاهم الله عنه ، كذهاب الرسل ، وأتباع الرسل إلى من يبلغون رسالات الله ، فإن التوكل إنما يصح مع القيام بما أمر به العبد . ليكون عابداً لله متوكلاً عليه ، وإلا فمن توكل عليه ولم يفعل ما أمر به ، فقد يكون ما أضاعه من الأمر أولى مما قام به من التوكل ، أو مثله ، أو دونه ، كما أن من قام بأمر ولم يتوكل عليه ولم يستعن به فلم يقم بالواجب ، بل قد يكون متركه من التوكل والاستعانة أولى به مما فعله من الأمر أو مثله أو دونه .

قال الشيخ : (وعلامة فنائك عنك وعن هواك : ترك التكسب ، والتعلق بالسبب في جلب النفع ودفع الضر ، فلا تتحرك فيك بك ولا تعتمد عليك لك ولا تنصر نفسك ، ولا تذنب عنك ، لكن تكل ذلك كله إلى من تولاه أولاً فيتولاه آخر ، كما كان ذلك موكلاً إليه في حال كونك مغنياً في الرحم ، وكونك رضيعاً طفلاً في مهدك) .

قلت : وهذا لأن النفس تهوى وجود ما تحبه وينفعها ، ودفع ما تبغضه ويضرها ، فإذا فنى عن ذاك بالأمر فعل ما يحبه الله وترك ما يبغضه الله ، فاعتاض بفعل محبوب الله عن محبوبه ، وبترك ما يبغضه الله عما يبغضه ، وحيث فالفلس لا بد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة ، فيكون في ذلك متوكلاً على الله .

(والشيخ - رحمه الله - ذكر هنا التوكل دون الطاعة ، لأن النفس لا بد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة ، فإن لم تكن متوكله على الله في ذلك واثقة به لم يمكن أن تصرف عن ذلك فتمثل الأمر مطلقاً ، بل لا بد أن تعصى الأمر في جلب المنفعة ودفع المضرة فلا تصح العبادة لله وطاعة أمره بدون التوكل عليه ، كما أن التوكل عليه لا يصح بدون عبادته وطاعته قال - تعالى - ﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ ^(١) وقال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ ﴾ ^(٢) وقال - تعالى - : ﴿ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ۝ رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ ^(٣) .

(١) جزء من الآية : ١٢٣ من سورة هود . (٢) جزء من الآيتين : ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

(٣) الايتان ٨ ، ٩ من سورة الزمل .

و(المقصود) أن امتثال الأمر على الإطلاق لا يصح بدون التوكل والاستعانة ، ومن كان واثقا بالله أن يجلب له ما ينفعه ويدفع عنه ما يضره أمكن أن يدع هواه ويطيع أمره ، وإلا فنفسه لا تدعه أن يترك ما يقول إنه محتاج فيه إلى غيره .

* وكذلك تطرق - رحمه الله - إلى المزيد من إيضاح معنى التوكل في معرض حديثه عن (أقسام القرآن) حيث قال (٣٢٠ - ٣٢٤/١٣) :

وأما (النازعات غرقا) فهي الملائكة القابضة للأرواح ، وهذا يتضمن الجزاء ، وهو من أعظم المقسم عليه . قال - تعالى - : ﴿ قُلْ يَتُوقِنُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ تُعَرِّىْكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تَرْجِعُونَ ﴾ ^(١) وقال تعالى : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ ^(٢) ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ^(٣) ، ^(٤) هو ولا يعين على عبادته إلا هو ، وهذا يقين يعطى الاستعانة والتوكل ، وهو يقين بالقدر الذى لم يقع ، فإن الاستعانة والتوكل إنما يتعلق بالمستقبل .

فأما ما وقع فإنما فيه الصبر والتسليم والرضا ، كما فى حديث عمار بن ياسر ^(٥) - رضى الله عنه - مرفوعا إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - : « أَسْأَلُكَ الرَّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ » ^(٥) وقول : « لاحول ولا قوة إلا بالله » يوجب الإعانة ، ولهذا سنّها النبى - صلى الله عليه وسلم - إذا قال المؤذن : (حى على الصلاة . فيقول المجيب : لاحول ولا قوة إلا بالله ، فإذا قال : حى على الفلاح ، قال المجيب : لا حول ولا قوة إلا بالله) ^(٦) .

(١) الآية : ١١ من سورة السجدة .

(٢) جزء من الآيتين : ٦١ ، ٦٢ من سورة الأنعام .

(٣) هنا موضع إشارة من المحقق إلى سقوط بعض الكلام من الأصل المخطوط .

(٤) سبق الترجمة

(٥) جزء من الحديث الذى طرفه « اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق .. الحديث سبق تخريجه .

(٦) رواه مسلم (٤/٢) ، وأبو داود (٥٢٧) ، والبيهقى (٤٠٩/١) ، وأبو عوانة (٣٣٩/١) ،

والسراج فى مسنده (١/٢٣/١) عن عمر بن الخطاب ، وخرجه الألبانى فى (إرواء الغليل) برقم ٢٤٠ ج

. ٢٥٨/

وقال المؤمن لصاحبه : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ ^(١) ولهذا يؤمر بهذا من يخاف العين على شيء فقله : ما شاء الله تقديره : ما شاء الله كان ، فلا يأمن ، بل يؤمن بالقدر . ويقول : لا قوة إلا بالله وفي حديث أبى موسى الأشعرى ^(٢) - رضى الله عنه - المتفق عليه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « هي كنز من كنوز الجنة » ^(٣) و(الكنز) مال مجتمع لا يحتاج إلى جمع ، وذلك أنها تتضمن التوكل والافتقار إلى الله - تعالى - .

ومعلوم أنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله وقدرته ، وأن الخلق ليس منهم شيء إلا ما أحدثه الله فيهم ، فإذا انقطع طلب القلب للمعونة منهم وطلبها من الله فقد طلبها من خالقها الذى لا ياتى بها إلا هو قال - تعالى - : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ^(٤) وقال - تعالى - : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ ^(٥) وقال - تعالى - : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٦) وقال - تعالى - : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ ﴾ ^(٧) وقال صاحب يس : ﴿ أَتَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا إِنْ يُرِدِ الرَّحْمَنُ ضُرًّا لَاتُغْنِ عَنْهُ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴾ ^(٨) **﴿ إِنِّي إِذْ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾** ^(٨) وهذا يأمر الله بالتوكل عليه، وحده في غير موضع . وفي الاثر : من سره أن يكون

(١) جزء من الآية : ٣٩ من سورة الكهف .

(٢) سبقت الترجمة .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) جزء من الآية : ٢ من سورة فاطر .

(٥) جزء من الآية : ١٠٧ من سورة يونس .

(٦) جزء من الآية : ١٧ من سورة الأنعام .

(٧) جزء من الآية : ٣٨ من سورة الزمر .

(٨) الايتان : ٢٣ ، ٢٤ من سورة يس .

أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ سَرَهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقُ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ ، قَالَ - تعالى - : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُذُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا ۖ ﴾ ^(١) .

والله - تعالى - أمر بعبادته والتوكل عليه قال - تعالى - : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۖ ﴾ ^(٢) وقال - تعالى - : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ ﴾ ^(٣) وقال موسى : ﴿ يَقُومُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ۖ ﴾ ^(٤) .

وقال شعيب : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۖ ﴾ ^(٥) وقال المؤمنون : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْنَا تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۖ ﴾ ^(٦) وقال - تعالى - : ﴿ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۖ ﴾ ^(٧) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۖ ﴾ ^(٨) وقال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۖ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۖ ﴾ ^(٩) فافترق الناس هنا أربعة أصناف .

صنف : لا يعبدونه ولا يتوكلون عليه ، وهم شرار الخلق .

-
- (١) الآية : ٥٨ من سورة الفرقان .
 - (٢) جزء من الآية : ١٢٣ من سورة هود .
 - (٣) جزء من الآية : ٣٠ من سورة الرعد .
 - (٤) جزء من الآية : ٨٤ من سورة يونس .
 - (٥) جزء من الآية : ٨٨ من سورة هود .
 - (٦) جزء من الآية : ٤ من سورة الممتحنة .
 - (٧) الأيتان : ٨ ، ٩ من سورة المزمل .
 - (٨) جزء من الآية : ٢ والاية : ٣ من سورة الطلاقي .

وصنف : يقصدون عبادته بفعل ما أمر ، وترك ما حَظَرَ ، لكن لم يحفظوا التوكل والاستعانة ، فيعجزون عن كثير مما يطلبونه ، ويجزعون في كثير من المصائب .

ثم من هؤلاء من يكذب بالقدر ، ويجعل نفسه هو المبدع لأفعاله ، فهؤلاء في الحقيقة لا يستعينونه ولا يطلبون منه صلاح قلوبهم ، ولا تقويمها ولا هدايتها ، وهؤلاء مخولون كما هم عند الأمة كذلك .

وقوم يؤمنون بالقدر قولاً واعتقاداً ، لكن لم تتصف به قلوبهم علماً وعملاً ، كما اتصفت بقصد الطهارة والصلاة ، فهم أيضاً ضعفاء عاجزون .

وصنف نظر إلى جانب القدرة والمشيئة ، وأن الله - تعالى - هو المعطى والمائع ، والخافض والرافع ، فغلب عليهم التوجه إليه من هذه الجهة والاستعانة به ، والافتقار إليه لطلب ما يريدونه ، فهؤلاء يحصل لأحدهم نوع سلطان وقدرة ظاهرة أو باطنة وقهر لعدوه ، بل قتل له ونيل لأغراضه ، لكن لآعاقبة لهم ، فإن العاقبة للتقوى ، بل آخرتهم آخرة رَدِيَّةٌ .

وليس الكلام في الكفار والظلمة المعرضين عن الله ، فإن هؤلاء دخلوا في القسم الأول الذين لاعبادته لهم ولا استعانة ، ولكن الكلام في قوم عندهم توجه إلى الله وتألُّه ، ونوع من الخشية والذكر والزهد ، لكن يغلب عليهم التوجه بإرادة أحدهم وذوقه ووجده ، وما يستحليه ويستحبه ، لا بالأمر الشرعى .

خامسا : في عدم جواز التوكل إلا على الله

* الفتوى الأولى (١٦١ - ١٨٠ / ٨) :

سئل الشيخ الإمام العلامة أبو العباس أحمد بن تيمية - رضى الله عنه - عن قول على ^(١) - رضى الله عنه - « لَا يَرْجُونَ عَبْدٌ إِلَّا رَبَّهُ : وَلَا يَخَافَنَّ إِلَّا ذَنْبَهُ » مامعنى ذلك ؟

فاجاب .

الحمد لله : هذا الكلام يؤثر عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ^(١) - رضى الله عنه - وهو من أحسن الكلام ، وأبلغه وأتمه ؛ فإن الرجاء يكون للخير ، والخوف يكون من الشر ، والعبد إنما يصيبه الشر بذنوبه ، كما قال - تعالى - : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ ^(٢) وقال - تعالى - : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصَبِّهُمُ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصَبِّهُمُ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ ^(٣) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ^(٤) .

فإن كثيرا من الناس يظن أن المراد بالحسنات والسيئات في هذه الآية الطاعات والمعاصى .

(١) سبقت الترجمة

(٢) الآية . ٣٠ من سورة الشورى .

(٣) الآية : ٧٨ وجزء من الآية : ٧٩ من سورة النساء .

ثم « المثبتة للقدر » يحتجون بقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فيعارضهم قوله : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ .

و« نفاة القدر » يحتجون بهذه الثانية مع غلطهم في ذلك ، فإن مذهبه أن العبد يخلق جميع أعماله ، ويعارضهم قوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

وإنما غلط كلا الفريقين ، لما تقدم من ظنهم أن الحسنات والسيئات هي الطاعات والمعاصي ، وإنما الحسنات والسيئات في هذه الآية : النعم والمصائب ،

كما في قوله - تعالى - ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ^(١) ﴾ ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ^(٢) ﴾ وقوله - تعالى - : ﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ^(٣) ﴾ وقوله تعالى - : ﴿ وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ ^(٤) ﴾ .
ينحو ذلك . وهذا كثير .

وهذه الآية ذم الله بها المنافقين الذين يكتلون عما أمر الله به من الجهاد وغيره ، فإذا نالهم رزق ونصر وعافية قالوا : ﴿ هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ وإن نالهم فقر وذل ومرض قالوا : ﴿ هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ - يا محمد - بسبب الدين الذي أمرتنا به ، كما قال قوم فرعون لموسى .

وذكر الله ذلك عنهم بقوله - تعالى - : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ^(٥) ﴾ وكما قال الكفار لرسول عيسى : ﴿ إِنَّا نَطَّيَّرُ بِكُمْ ^(٦) ﴾ .

(١) جزء من الآية : ١٣١ من سورة الأعراف . (٤) جزء من الآية : ٩ من سورة غافر .

(٢) جزء من الآية : ١٦٨ من سورة الأعراف . (٥) جزء من الآية : ١٣١ من سورة الأعراف .

(٣) جزء من الآية : ١٢٠ من سورة آل عمران . (٦) جزء من الآية : ١٨ من سورة يسن .

فالكفار والمنافقون إذا أصابهم المصائب بذنوبهم تطيروا بالمؤمنين ، فبين الله - سبحانه - أن الحسنه من الله ينعم بها عليهم وأن السيئه إنما تصيبهم بذنوبهم ، ولهذا قال - تعالى - : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ^(١) فأخبر أنه لا يعذب مستغفرا لأن الاستغفار يحو الذنب الذى هو سبب العذاب ، فيندفع العذاب كما فى سنن أبى داود ^(٢) وابن ماجه ^(٣) عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « مَنْ أَكْثَرَ الْإِسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ فَرْجٍ ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » ^(٤) وقد قال - تعالى - : ﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْ ذِىرٍ وَبَشِيرٌ ﴾ ^(٥) وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنْعَاحَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ^(٦)

فبين أن من وَحَّده واستغفره مُتَّعَ متاعا متابعا حسنا إلى أجل مسمى ، ومن عمل بعد ذلك حيرا زاده من فضله ، وفى الحديث : « يَقُولُ الشَّيْطَانُ : أَهْلَكْتُ النَّاسَ بِالذُّنُوبِ ، وَأَهْلَكُونِى بِإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ ، وَالْإِسْتِغْفَارِ . فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ بَشَّتُ فِيهِمُ الْأَفْوَءَ ، فَهُمْ يُذْنِبُونَ وَلَا يُتُوبُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا » ^(٦) .

(١) الآية : ٣٣ من سورة الأنفال

(٢) سبقت الترجمة

(٣) أبو عبد الله ابن ماجه : محمد بن يزيد الربعى القزوينى من أئمة علم الحديث ، صاحب (سنن ابن ماجه) أحد الكتب الستة المعتمدة ، وهو من أهل قزوین ، ورحل إلى البصرة وبغداد والشام ومصر والحجاز والرى فى طلب الحديث ، عاش فيما بين (٤٠٩ هـ / ٨٢٤ م) و(٤٧٣ هـ / ٨٨٧ م) [انظر فى ترجمته : وفيات الأعيان ٤٨٤/١ ، وتهذيب التهذيب ٥٣٠/٩ ، وتذكرة الحفاظ ١٨٩/٢ الأعلام للزركلى ج ١٤٤/٧ .

(٤) سبق تخريجه .

(٥) جزء من الآية : ٢ والآية : ٣ من سورة هود .

(٦) سبق تخريجه .

ولهذا قال - تعالى - : ﴿ فَآخَذَ نَهُمُ بِالْبَاسِ وَأَلْصَقَهُمُ الْبَصَرُ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (٤٢)
فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴿ (١) أى : فهلاً إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ،
فحقهم عند مجيء البأس التضرع ، وقال - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ آخَذْنَا نَهُمُ
بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (٢) قال عمر بن عبد العزيز (٣)
مانزل بلاء إلا بذنب ، ولارفع إلا بتوبة ، ولهذا قال - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ قَالَ
لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا
اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (٤٧٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ شَيْءٌ
وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ
أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ (٤)

فهى المؤمنين عن خوف أولياء الشيطان ، وأمرهم بخوفه ، وخوفه يوجب فعل
ما أمر به ، وترك ما نهى عنه ، والاستغفار من الذنوب ، وحيث يندفع البلاء
ويبتصر على الأعداء فلماذا قال على (٥) - رضى الله عنه - : لا يخافن عبد إلا ذنبه .
وإن سلط عليه مخلوق فما سلط عليه إلا بذنوبه فليخف الله وليتب من ذنوبه التى
ناله بها ماناله ، كما فى الأثر : « يَقُولُ اللَّهُ : أَنَا مَالِكُ الْمُلُوكِ ، قُلُوبُ الْمُلُوكِ
وَتَوَاصِيهِمْ بِيَدِي ، مَنْ أَطَاعَنِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ رَحْمَةً ، وَمَنْ عَصَانِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ
نِقْمَةً ، فَلَا تُشْغِلُوا بِسَبِّ الْمُلُوكِ ، وَأَطِيعُونِي أُعْطِفَ قُلُوبُهُمْ عَلَيْكُمْ » (٦) .

(١) جزء من الآيتين : ٤٢ ، ٤٣ من سورة الأنعام .

(٢) الآية : ٧٦ من سورة المؤمنين .

(٣) سبقت الترجمة .

(٤) الآيات : ١٧٣ - ١٧٥ من سورة آل عمران

(٥) سبقت الترجمة .

(٦) رواه الطبرانى فى (الأوسط) وعنه أبو نعيم (٣٨٩/٢) ، وتام (١/٧٧/٦) من مجموع الظاهرية رقم
(٩٥) ، قال الألبانى عن إسناده : هذا إسناد ضعيف جدا ، ونقل قول النسائى عن المقدم بن داود : ليس
بثقة ، ونقل قول ابن عدى عن وهب بن راشد : ليس حديثه بالمستقيم ، أحاديثه كلها فيها نظر ، وقال
الدارقطنى : متروك ، وقال ابن حبان : لا يجل الاحتجاج به بحال ، وقال الهيثمى : وهو متروك . قال
الألبانى : وتعصيب الجنابة به وحده ليس بجيد ، لما علمت أن فى الطريق إليه المقداد بن داود وهو مثله فى
الضعف . [انظر حديث رقم ٦٠٢ ج ٢/٦٨ من (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ فى
الأمة) للألبانى] .

وأما قوله : « لَا يَرْجُونَ عَبْدٌ إِلَّا رَبَّهُ » فإن الراجى يطلب حصول الخير ودفع الشر ، ولا يأتى بالحسنات إلا الله ، ولا يذهب السيئات إلا الله ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ ^(١) ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ^(٢) والرجاء مقرون بالتوكل ، فإن المتوكل يطلب مارجاه من حصول المنفعة ودفع المضرة ، والتوكل لا يجوز إلا على الله - كما قال - تعالى - : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ^(٣) وقال : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ^(٤) وقال - تعالى - : ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُكُمُ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمُ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ^(٥) وقال - تعالى - ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ^(٦) وقال - تعالى - : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ^(٧) .

فهؤلاء قالوا : حسبنا الله ، أى : كافينا الله فى دفع البلاء ، وأولئك أمروا أن يقولوا : حسبنا فى جلب النعماء ، فهو - سبحانه - كاف عبده فى إزالة الشر وفى إزالة الخير ، أليس الله بكاف عبده ، ومن توكل على غير الله ورجاه تحذل من جهته وحريم ، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ﴾ ^(٨)

(١) جزء من الآية : ١٠٧ من سورة يونس .

(٢) جزء من الآية : ٢ من سورة فاطر .

(٣) جزء من الآية : ٢٣ من سورة المائدة .

(٤) جزء من الآية : ١٢ من سورة إبراهيم .

(٥) الآية : ١٦٠ من سورة آل عمران .

(٦) الآية : ٥٩ من سورة التوبة .

(٧) الآية : ١٧٣ من سورة آل عمران .

(٨) جزء من الآية : ٤١ من سورة العنكبوت .

﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ (٨١) ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ (١) ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (٢) ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ (٣) وقال الخليل : ﴿ فَأَبْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٤) .

فمن عمل لغير الله رجاء ان ينتفع بما عمل له ، كانت صفقته خاسرة ، قال الله تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٥) وقال - تعالى - : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ (٦) وقال - تعالى - : ﴿ وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ أَنْشَأَ لَهُمْ أَهْلَ عَادٍ فَلَمَّا ظَلَمُوا وَجْهَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسٍ يُغْمِضُونَ ﴾ (٧) وقال - تعالى - : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (٨) كما قيل في تفسيرها . كل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه ، فمن عمل لغير الله ورجاه بطل سعيه ، والراجى يكون راجيا تارة بعمل يعمل له لمن يرجوه وتارة باعتماد قلبه عليه والنجاة إليه وسؤاله ، فذا لم نوع من العبادة له ، وهذا نوع من الاستعانة به ، وقد قال - تعالى - : ﴿ إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٩) وقال : ﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (١٠) وقال : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ (١١)

(١) الآيات : ٨١ ، ٨٢ من سورة مريم .

(٢) جزء من الآية : ٣١ من سورة الحج .

(٣) الآية : ٢٢ من سورة الإسراء .

(٤) جزء من الآية : ١٧ من سورة العنكبوت .

(٥) الآية : ٣٩ من سورة النور .

(٦) جزء من الآية : ١٨ من سورة إبراهيم .

(٧) جزء من الآية : ٣٠ من سورة الرعد .

(٨) الآية : ٢٣ من سورة الفرقان .

(٩) جزء من الآية : ٨٨ من سورة القصص .

(١٠) الآية : ٥ من سورة الفاتحة .

(١١) جزء من الآية : ١٢٣ من سورة هود .

ومما يوضح ذلك أن كل خير ونعمة تنال العبد فإنما هي من الله ، وكل شر ومصيبة تندفع عنه أو تُكشَف عنه فإنما يمنعها الله ، وإنما يكشفها الله ، وإذا جرى ما جرى من أسبابها على يد خلقه ، فالله - سبحانه - هو خالق الأسباب كلها سواء كانت الأسباب حركةً حَيٍّ باختياره وقصده ، كما يحدثه - تعالى - بحركة الملائكة والجن والإنس والبهائم ، أو حركة جهاد بما جعل الله فيه من الطبع ، أو بقاسم يقصره كحركة الرياح والمياه ونحو ذلك ، فالله خالق ذلك كله ، فإنه لا حول ولا قوة إلا به ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فالرجاء يجب أن يكون كله للرب ، والتوكل عليه والدعاء له فإنه إن شاء ذلك ويسره كان وتيسر ، ولو لم يشأ الناس ، وإن لم يشأه ولم يسره لم يكن وإن شاء الناس .

وهذا واجب لو كان شيء من الأسباب مستقلاً بالمطلوب ، فإنه لو قدر مستقلاً بالمطلوب وإنما بمشيئة الله وتيسيره - لكان الواجب أن لا يرجى إلا الله ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يسأل إلا هو ، ولا يستعان إلا به ، ولا يستغاث إلا هو ، فله الحمد وإليه المشتكى ، وهو المستعان ، وهو المستغاث ، ولا حول ولا قوة إلا به ، فكيف وليس شيء من الأسباب مستقلاً بمطلوب ، بل لا بد من انضمام أسباب أُخَر إليه ، ولا بد أيضاً من صرف الموانع والمعارضات عنه ، حتى يحصل المقصود .

فكل سبب فله شريك وله ضد ، فإن لم يعاونه شريكه ولم يصرف عنه ضده لم يحصل سببه ، فالمطر وحده لا ينبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك ، ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له ، والطعام والشراب لا يغذى إلا بما جعل في البدن من الأعضاء والقوى ، ومجموع ذلك لا يفيد إن لم تصرف المفسدات ، والمخلوق الذى يعطيك أو ينصرك فهو - مع أن الله يخلق فيه الإرادة والقوة والفعل - فلا يتم ما يفعله إلا بأسباب كثيرة خارجة عن قدرته تعاونه على مطلوبه ، ولو كان مَلِكاً مطاعاً ولا بد أن يصرف عن الأسباب المعاونة ما يعارضها ويمنعها ، فلا يتم المطلوب إلا بوجود المقتضى وعدم المانع ، وكل سبب معين فإنما هو جزء من المقتضى ، فليس في الوجود شيء واحد هو مقتضيا ، وإن سمي مقتضيا وسمى سائر ما يعينه شروطاً ، فهذا نزاع لفظي ، وحينئذ

فيقال : لابد من وجود المقتضى والشروط ، وانتفاء الموانع ، وإما أن يكون في المخلوقات علة تامة تستلزم معلولها ، فهذا باطل .

ومن عرف هذا حق المعرفة انفتح له باب توحيد الله ، وعلم أنه لا يستحق لأن يدعى غيره فضلاً عن أن يُعبدَ غيره ، ولا يتوكل على غيره ولا يرجى غيره ، وهذا مبرهن بالشرع والعقل ، ولا فرق في ذلك بين الأسباب العلوية والسفلية ، وأفعال الملائكة والأنبياء والمؤمنين وشفاعتهم وغير ذلك من الأسباب ، فإن من توكل في الشفاعة أو الدعاء على ملك أو نبي أو رجل صالح أو نحو ذلك قيل له : هذا أيضاً سبب من الأسباب ، فهذا الشافع والداعي لا يفعل ذلك إلا بمشيئة الله وقدرته ، بل شفاعة أهل طاعته لا تكون إلا لمن يرضاه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ ^(١) .

فليس أحد يشفع عنده إلا بإذنه : الإذن القدرى الكونى - فإن شفاعته من جهة أفعال العباد لا تكون إلا بمشيئته وقدرته ، فليس كالمخلوق الذى يشفع إليه شافع تكون شفاعته بغير حَوْلِ المشفوع إليه وقوته ، بل هو - سبحانه - خالق الشفاعة الشافع كسائر التحولات ، ولا حول ولا قوة إلا به ، و« الحول » يتضمن التحول من حال إلى حال بحركة أو إرادة أو غير ذلك فالشافع لا حول له في الشفاعة ولا غيرها إلا به ، ثم أهل طاعته الذين تقبل شفاعتهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى فلا يطلبون منه مالا يجب أن يطلب منه ، بل الملائكة الذين هم ملائكته كما قال فيهم : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ ^(٢) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ لَآتُونَ ﴿ ٢٧ ﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ^(٣) .

والصادر عنهم إما قول وإما عمل ، فالقول لا يسبقونه ، بل لا يقولون حتى يقول ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وعلينا أن نكون معه ومع رسله هكذا ، فلا نقول في الدين حتى يقول ، ولا نتقدم بين يدي الله ورسوله ، ولا نعبده إلا بما أمر

(١) جزء من الآية : ٢٨ من سورة الأنبياء .

(٢) الآيات : ٢٦ - ٢٨ من سورة الأنبياء .

وأعلى من هذا أن لانعمل إلا بما أمر ، فلا تكون أعمالنا إلا واجبة أو مستحبة ، وإذا كان هكذا في مثل هذه الأسباب فكيف بمن توكل أو رجا أسبابا غير هذه من الكواكب أو غيرها ، أو من أفعال الآدميين من الملوك والرؤساء والأصحاب والأصدقاء والممالك والأتباع وغير ذلك ؟

ومما ينبغي أن يُعَلَّمَ ما قاله طائفة من العلماء ؛ قالوا : الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد . ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قَدْحٌ في الشرع ، وإنما التوكل والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع .

وبيان ذلك : أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد إليه ، وليس في المخلوقات ما يستحق هذا لأنه ليس مستقلاً ، ولا بد له من شركاء وأضداد ، ومع هذا كله فإن لم يستخره مسبب الأسباب لم يُسَخَّرْ ، وهذا مما بين أن الله رب كل شيء ومليكه ، وأن السموات والأرض وما بينهما والأفلاك وما حوته لها خالق مدبر غيرها ، وذلك أن كل ما يصدر عن فلك أو كوكب أو ملك أو غير ذلك فإنك تجده ليس مستقلاً بإحداث شيء من الحوادث ، بل لابد من مشارك ومعاون وهو مع ذلك له معارضات وممانعات .

ومن أعظم ذلك (الفلك الأطلس التاسع) الذي يظن كثير من المتفلسفة الإلهيين والمنجمين وغيرهم أن حركته هي السبب في حدوث الحوادث كلها ، وإليها انتهى علمهم بأسباب الحوادث ثم هم إما أن يجعلوه معلولاً لواجب الوجود بتوسط عقل أو نفس ، أو بغير توسط ذلك ، وإما أن ينكروا أن يكون معلولاً ويجعلونه واجب الوجود بنفسه ، فقولهم هذا من أعظم الأقوال فسادا ، وإن كانوا مع ذكائهم لا يهتدون لذلك ، ولا يهتدى كثير من الناس للرد عليهم في ذلك .

وكل من نظر إلى السماء علم أن حركته ليست هي السبب في جميع الحركات العلوية ، فإن كثيرا ما يقال : إنه بحركته المشرقية يتحرك كل ما فيه من الأفلاك من المشرق إلى المغرب ، لكن مع هذا لكل فلك حركة أخرى تخصه - تخالف هذه الحركة - فلك الثوابت ، وفلك الشمس ، والقمر ، وغيرهما من الحُسنس الجوارى

الكُنْسي ، وهذه الحركات المختلفة ليست عن تلك الحركة - تخالفها - ولا أفلاكها معلولة عن ذلك الفلك التاسع .

فلو قدر أن الحوادث تكون بحركة الكواكب ، وما يحدث عن الأشكال المختلفة بالتثليث والتريع والتسديس والقرآن ، وغير ذلك ، فمن المعلوم أن تلك الأشكال المختلفة ليست معلولة عن حركة التاسع ، بل حركة التاسع جزء السبب ، كما أن حركة كل فلك جزء السبب ، والشكل الفلكي حادث عن مجموع الحركتين ، أو الحركات المختلفة ، فإذا قدر أن التسعة اقترنت فلها سبع حركات بل أكثر من ذلك - عندهم - بحسب الأفلاك الأتخر الزوائد ورجوعها ، وغير ذلك من حركاته ، وإذا كان كذلك فمن جعل حركة التاسع هي السبب في جميع الحوادث كان قوله مخالفا لما هو معلوم عند هؤلاء الفلاسفة والمنجمين ، وعند كل عاقل ، ثم إذا قدر [أنها سبب] ^(١) حركة جميع الأفلاك فليست مستقلة بإحداث شيء من السحب والرعود والبروق والأمطار والنبات وأحوال الحيوان والمعدن لأن حركات هذه الأجسام ليست كلها عن حركات الأفلاك بل فيها قوى وأسباب توجب لها حركات أخرى ، كما في كل فلك مبتدأ حركة ليست عن الفلك الآخر .

والحركات كلها : إما (طبيعية) وإما (إرادية) ، وإما (قَسْرِيَّة) ، فالقسرية تابعة للقاسر ، والطبيعية هي التي لا إحساس للمتحرك بها كحركة التراب إلى أسفل ، والإرادية هي التي للمتحرك بها حس كحركة الحيوان ، فما كان من هذه متحركا بطبيع فيه أو إرادة ، فمبتدأ حركته منه ، وما كان مقسورا فقاسره من المخلوقات إنما يقسره لما فيه من الاستعداد لقبول قسره ، وذلك معنى ليس من القاسر ، فحركات الأفلاك إذا اجتمعت ليست مستقلة بتحريك هذه الأجسام ، وإن جاز أن تكون جزءا للسبب كما نشهد أن الشمس جزء سبب في نمو بعض الأجسام ورطوبتها وبيسها ونحو ذلك . ثم بتقدير أن تكون أسبابا فلها موانع ومعارضات ، إذ ما من سبب يقدر إلا وله مانع إرادي أو طبيعي ، أو غير ذلك : كالدعاء والصدقة والأعمال الصالحة ، فإنها من أعظم الأسباب في دفع

(١) ما بين القوسين من إضافة المحقق لاستقامة السياق .

البلاء النازل من السماء ، ولهذا أمرنا بذلك عند الكسوف وغيره من الآيات السماوية التي تكون سببا للعذاب ، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَتَكْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزِعُوا إِلَى الصَّلَاةِ » ^(١) وأمر - صلى الله عليه وسلم - عند الكسوف بالصلاة والذكر والاستغفار والصدقة والعتاقة .

وإذا عرف أن كل واحد من الموجودات المشهودة ، إذا نظرت إليها - واحدا واحدا - من الفلك التاسع وغيره وجدته غير مستقل بإحداث شيء أصلاً . بل لا بد للحوادث من أسباب أُخَر ، وإن كان هو جزء سبب ، ولها معارضات أُخَر علم بذلك أنه ليس في هذه الأمور ما يجوز أن يقال : هو المحدث للحوادث المشهودة ، فضلاً عن أن يقال : هو المبدع للأجسام المتحركة حركة تخالف حركته ، وتدفع موجهاً ؛ فإن الشيء لا يوجب ما يضاذه ويخالفه ، وإذا كان في الأجسام المتحركة ما يخالف مقتضاه موجب الفلك - التاسع ومقتضاه - ويضاذه امتنع أن يكون أحدهما علة الآخر ؛ لأن المعلول لا يضاذه علة ، كما لا يجوز أن يكون فاعلاً لها كما أن الشيء لا يكون ضداً لنفسه ، ولا فاعلاً لنفسه ، فإن مضادته لنفسه توجب أن يكون وجوده تابعا لوجوده ، فيكون موجودا معدوما ، وفعله لنفسه مع كون العلة متقدمة على المعلول . يوجب أن تكون نفسه موجودة معدومة .

ومن المعلوم أن (الفلك التاسع) إذا لم تكن الحوادث والحركات التي عن قوى الأجسام منه ، وإنما منه حركة عَرَضِيَّةٌ لها ، فأن لا تكون نفس الأجسام وقواها منه أولى وأحرى ، ويعلم بذلك أن المحرك للأفلاك وغيرها من الأجسام المشهودة والمبدع لهذه الأجسام بسبب آخر رَبٌّ غيرها ، هو الذي أبدعها على صورها المختلفة وحركتها بالحركات المختلفة ، وهو المطلوب .

(١) رواه البخارى والنسائى عن أبى بكره ، ورواه الشيخان والنسائى وابن ماجه عن أبى مسعود ورواه الشيخان والنسائى عن ابن عمر ، والشيخان عن المغيرة ، وأورده الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) برقم ١٦٤٤ ج ٣٣٨/١ .

ثم هذه الكواكب إذا كانت جزء السبب من بعض الحوادث فإنما تكون جزء السبب في حال دون حال ؛ فإنها في حال ظهورها على وجه الأرض يظهر نورها وأثرها ، فإذا أُلْتُ انقطع نورها وأثرها فلا تبقى حيثئذ سببا ولاجزءا من السبب ، ولهذا قال الخليل - صلى الله عليه وسلم ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾^(١) فإنها في حال أفولها قد انقطع أثرها عنا بالكلية ، فلم تبقى شبهة يستند إليها المتعلق بها ، والرب الذي يُدْعَى وَيُسَالُّ وَيُرْجَى وَيَتَوَكَّلُ عليه لا بد أن يكون قيوما يقيم العبد في جميع الأوقات والأحوال ، كما قال : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾^(٢) وقال : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(٣) فهذا وغيره من أنواع النظر والاعتبار يوجب أن العبد لا يرجو إلا الله ولا يتوكل إلا عليه .

وأما كونه لا يخاف إلا ذنبه فلما علم من أنه لاتصيه مصيبة إلا بذنوبه ، وهذا يعلم بآيات الآفاق والأنفس ، وبما أخبر في كتابه ، كما هو مبسوط في غير هذا الموضع ، وبينا سر ذلك بما لا يحتمله هذا الموضع .

وهذا تحقيق ماثبت في الحديث الصحيح الإلهي حديث أبي ذر^(٤) عن النبي - صلى الله عليه وسلم - عن ربه أنه قال : « يَا عِبَادِي : إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفِيكُمْ بِهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ »^(٥) فبين أن كل ما يجده العبد من الخير فليحمد الله عليه ، فإن الله هو الذي أنعم به ، وأن ما يجده من الشر فلا يلوم فيه إلا نفسه .

وفي الصحيح أيضا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « سَيِّدُ الْاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ بِذُنُوبِي فَاعْفِرْ لِي ، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ »^(٥) فقله : « أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ » اعتراف وإقرار بالنعمة ،

(١) جزء من الآية : ٧٦ من سورة الأنعام .

(٢) جزء من الآية : ٥٨ من سورة الفرقان .

(٣) جزء من الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٤) سبقت الترجمة .

(٥) سبق ترجمته .

وقوله : « وَأَبُوهُ يَذَلِّي » إقرار بالذنب ، ولهذا قال من قال من السلف : إني أصبح بين نعمة وذنب ، فأريد أن أحدث للنعمة شكراً ، وللذنب استغفارا ، لكن الشكر يكون بعد النعمة ، والتوكل والرجاء يكون قبل النعمة ، كما قال الخليل ﴿ فَأَبْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ وَأَعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾^(١) وفي خطبة النبي - صلى الله عليه وسلم : « الْحَمْدُ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا »^(٢) فجمع بين حمده والاستعانة به والاستغفار له ، فقد تبين أن الالتفات إلى الأسباب شرٌّ في التوحيد ، وهو ظلم وجهل ، وهذه حال من دعا غير الله وتوكل عليه .

وأما قولهم : محو الأسباب أن تكون أسبابا : نقص في العقل ، فهو كذلك وهو طعن في الشرع أيضا : فإن كثيرا من أهل الكلام أنكروا الأسباب بالكلية وجعلوا وجودها كعدمها ، كما أن أولئك الطبيعيين جعلوها عللاً مقتضية ، وكما أن المعتزلة فَرَّقُوا بين أفعال الحيوان وغيرها ، والأقوال الثلاثة باطلة ، فإن الله يقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نَفَخَ فِيهِ سَفْنَةً لِبَدٍ مِثْلَ بَنَاتِ الْأُمَمِ فَانْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾^(٣) وقال - تعالى - : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾^(٤) وقال - تعالى - : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾^(٥) وقال - تعالى - : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾^(٦) وأمثال ذلك فمن قال : يفعل عندها لا بها فقد خالف لفظ القرآن مع أن الحس والعقل يشهد أنها أسباب ، ويعلم الفرق بين

(١) جزء من الآية : ١٧ من سورة العنكبوت .

(٢) رواه الشافعي والبيهقي في (المعرفة) عن ابن عباس ، وهو في (كنز العمال) برقم ٤٣٦٢١ ج ١٥ / ٩٤٢ وطرفه : ﴿ الحمد لله نستعينه ونستغفره ونستهديه ونستصره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ﴾ الحديث .

(٣) جزء من الآية : ٥٧ من سورة الأعراف . (٥) جزء من الآية : ١٦ من سورة المائدة .

(٤) جزء من الآية : ١٦٤ من سورة البقرة . (٦) جزء من الآية : ٢٦ من سورة البقرة .

اختصاص أحدهما بقوة ليست في الآخر ، وبين الخبز والحصى في أن أحدهما يحصل به الغذاء دون الآخر .

وأما قولهم : الإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ، بل هو أيضا قدح في العقل ، فإن أفعال العباد من أقوى الأسباب لِمَا نِيْطُ بِهَا ، فمن جعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أو يجعل المتقين كالفجار ، فهو من أعظم الناس جهلاً وأشدّهم كفرًا ، بل ما أمر الله به من العبادات والدعوات والعلوم والأعمال من أعظم الأسباب ، فيما نيط بها من العبادات ، وكذلك مانهى عنه من الكفر والفسوق والعصيان هي من أعظم الأسباب لما علق بها من الشقاوات .

ومع هذا فقد قال خير الخلق : « إِنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ » قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلِي » ^(١) ولما قال لهم . « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » قالوا : يا رسول الله ! أَفَلَا تَنْكِلُ عَلَى الْكِتَابِ وَتَدْعَ الْعَمَلَ ؟ قال : « لَا ! اْعْمَلُوا فَكُلَّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، أَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيُسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيُسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ » ^(٢) .

وكذلك الدعاء والتوكل من أعظم الأسباب لما جعله الله سببا له ، فمن قال : ما قُدِّرَ لِي فهو يحصل لِي دَعْوَتْهُ أَوْ لَمْ أُدْعُ ، وتوكلْتُ أَوْ لَمْ أَتَوَكَّلْ ، فهو بمنزلة من يقول : ما قسم لِي من السعادة والشقاوة فهو يحصل لِي آمَنْتُ أَوْ لَمْ أُؤْمِنْ ، وأطعت أَمْ عصيت ، ومعلوم أن هذا ضلال وكفر ، وإن كان الأول ليس مثل هذا في الضلال ، إذ ليس تعليق المقاصد بالدعاء والتوكل كتعليق سعادة الآخرة بالإيمان ، لكن لا ريب أن ما جعل الله الدعاء سببا له فهو بمنزلة ما جعل العمل الصالح سببا له ، وهو قادر على أن يفعله - سبحانه - بدون هذا السبب وقد يفعله بسبب آخر .

وكذلك من ترك الأسباب المشروعة المأمور بها أمر إيجاب أو أمر استحباب من جلب المنافع أو دفع المضار قاذح في الشرع خارج عن العقل ، ومن هنا غلطوا في

(١) سبق تخريجه .

ترك الأسباب المأمور بها ، وظنوا أن هذا من تمام التوكل ، والتوكل مقرون بالعبادة في قوله ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ ^(١) والعبادة : فعل المأمور ، فمن ترك العبادة المأمور بها وتوكل لم يكن أحسن حالاً ممن عبده ولم يتوكل عليه بل كلاهما عاص لله تارك لبعض ما أمر به .

والتوكل يتناول التوكل عليه ليعينه على فعل ما أمر ، والتوكل عليه ليعطيه مالا يقدر العبد عليه ، فالاستعانة تكون على الأعمال ، وأما التوكل فأعم من ذلك ، ويكون التوكل عليه لجلب المنفعة ودفع المضرة ، قال تعالى - : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ ^(٢) وقال تعالى - : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لَهُمْ النَّاسُ إِنْ النَّاسُ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ^(٣) .

فمن لم يفعل ما أمر به لم يكن مستعيناً بالله على ذلك ، فيكون قد ترك العبادة والاستعانة عليها بترك التوكل في هذا الموضع أيضاً ، وآخر يتوكل بلا فعل مأمور ، وهذا هو العجز المذموم ، كما في سنن أبي داود ^(٤) أن رجلين اختصما إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فحكم على أحدهما فقال المقضى عليه : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّ اللَّهَ يُلَومُ عَلَى الْعَجْزِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكِسْرِ ، فَإِنْ غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » ^(٥) وفي صحيح مسلم ^(٦) عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ ، اخْرُصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ : فَإِنْ (لَوْ) تَفْتَحْ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » ^(٧) .

(١) جزء من الآية : ١٢٣ من سورة هود

(٢) الآية : ٥٩ من سورة التوبة .

(٣) الآية : ١٧٣ من سورة آل عمران .

(٤) سبقت الترجمة .

(٥) سبق تخريجه .

(٦) سبقت الترجمة .

فإن الإنسان ليس مأموراً أن ينظر إلى القدر عند ما يؤمر به من الأفعال ولكن عندما يجري عليه من المصائب التي لاحيلة له في دفعها ، فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم اصبر عليه وارضَ وسلِّمْ ، قال - تعالى - : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ ^(١) قال بعض السلف - إما ابن مسعود ^(٢) - وإما علقمة ^(٣) : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم .

ولهذا قال آدم لموسى : أتولمنى على أمر قدره الله علىّ قبل أن أخلق بأربعين سنة ؟! فَحَجَّ آدمُ موسى ، لأن موسى قال له : لماذا أخرجتنا ونَفَسَكَ من الجنة ؟! ^(٤) فلامه على المصيبة التي حصلت بسبب فعله ، لا لأجل كونها ذنباً ، ولهذا احتج عليه آدم بالقدر ، وأما كونه لأجل الذنب كما يظنه طوائف الناس فليس مراداً بالحديث ، لأن آدم - عليه السلام - كان قد تاب من الذنب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس .

و(أيضاً) فإن آدم احتج بالقدر ، وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين ، وسائر العقلاء ؛ فإن هذا لو كان مقبولاً لأمكن كل أحد أن يفعل ما يخطر له من قتل النفوس وأخذ الأموال وسائر أنواع الفساد في الأرض ويحتج بالقدر . ونفس المحتج بالقدر إذا اعتدى عليه واحتج المعتدى بالقدر لم يقبل منه ، بل يتناقض ، وتناقض القول يدل على فساده ، فالاحتجاج بالقدر معلوم الفساد في بدائيه العقول .

(١) جزء من الآية : ١١ من سورة التغابن .

(٢) سبقت الترجمة .

(٣) في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان ، وأحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه عن أنى هيرة : « احتج آدم موسى ، فقال موسى : أنت آدم الذى خلقك الله يده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته ، أخرجت الناس من الجنة بذنب وأشقيتهم . قال آدم : يا موسى أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، وأنزل عليك التوراة ، أتولمنى على أمر كتب الله علىّ قبل أن يخلقنى ؟! فَحَجَّ آدمُ موسى ، أورده الألبانى في (صحيح الجامع الصغير) برقم ١٨٤ ج ١ / ٩٨ .

ومن ظن أن الإيمان بالقدر أن الله خالق أفعال العباد كما يظنه المباحية المشركية ، الذين يقرون بالقدر دون الأمر ، والقدرية المجوسية الذين يقرون بالأمر دون القدر ، أو ظن أن التكليف مع ذلك غير معقول ، ولكن الشارع أطيع فيه لمحض المشيئة الإلهية ، وأن الله يفعل ، وجعل ذلك حجة له في الأفعال لم يتضمن أسبابا مناسبة للأمر والنهي ، بل أنكر ما اشتملت عليه الشريعة من المصالح والمخاسن والمقاصد التي للعباد في المعاش والمعاد ، وجعل ذلك الشرع مجرد إضافة من غير أن يكون من العلة والمعلول مناسبة وملاءمة ، وأنكر أن تكون الأفعال على وجوه لأجلها كانت حسنة مأمورا بها ، وكانت سيئة منهي عنها ، احتجاجا على ذلك بالقدر ، وأنه مع كون الرب هو الخالق يمتنع هذا كله فهو مخطيء ضال يعلم فساد قوله بالضرورة ، وبما اتفق عليه العقلاء مع دلالة الكتاب والسنة والإجماع على فساد قوله .

فإن عامة بني آدم يؤمنون بالقدر ، ويقولون : إنه لا بد من عقوبة المعتدين حتى المجانين والبهائم ، يؤدبون لكف عدوانهم ، وإن كانت أفعالهم مقدرة وبِعَفْوِ كُفْلِ الآدميين عن عدوانهم ، وإن كانت أفعالهم مقدرة فالعبد عليه أن يصبر ، وينبغي له أن يرضى بما قدر من المصائب ويستغفر من الذنوب والمعائب ، ولا يحتج لها بالقدر ، ويشكر ما قدر الله له من النعم والمواهب ، فيجمع بين الشكر والصبر والاستغفار والإيمان بالقدر والشرع ، والله أعلم .

فهرس الأحاديث

الحديث

الصفحة

(أ)

- ١ - أجعلتنى لله ندا ؟ ٨٠
- ٢ - أحتج آدم وموسى ١٢٥
- ٣ - إذا سألت فاسأل الله ٨٠
- ٤ - إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ١٠٣
- ٥ - إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ٧٥
- ٦ - إذا قال المؤذن : حى على الصلاة ١٠٦
- ٧ - أرأيت رُقئى نسترقى بها ١٣
- ٨ - أسرع الدعاء دعوة غائب لغائب ٧٦
- ٩ - اعزل عنها إن شئت ٩٢
- ١٠ - اعقلها وتوكل ٥
- ١١ - اعملوا فكل ميسر لما خلق له ٤٣
- ١٢ - أعوذ بكلمات الله التامات ٩١
- ١٣ - الله أعلم بما كانوا عاملين ٥٩
- ١٤ - اللهم افتح لى أبواب رحمتك ٣١
- ١٥ - اللهم إن كنت كتبتنى شقيا ٢٥
- ١٦ - اللهم إنى أسألك من فضلك ٣١
- ١٧ - اللهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق ١٠٢
- ١٨ - اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد ٨١
- ١٩ - إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صفته فى التوراة ٩٨
- ٢٠ - إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ١٢٠

- ٢١ - إن الصديق كان إذا وقع من يده سوط ينزل ٢٢
- ٢٢ - إن أفضل ما أكل الرجل من كسبه ٢١
- ٢٣ - إن الله إذا خلق الرجل ٥٤
- ٢٤ - إن الله أشد فرحا بتوبة عبده ٤٥
- ٢٥ - إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره ٥٤
- ٢٦ - إن الله خلق للجنة أهلاً ٤٣
- ٢٧ - إن الله قبض قبضة فقال ٥٣
- ٢٨ - إن الله قبض قبضتين فقال ٥٣
- ٢٩ - إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق ٥٦
- ٣٠ - إن الله يلوم على العجز ١٥
- ٣١ - إنك لن تنفق نفقة ٩٦
- ٣٢ - إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها ٢٧
- ٣٣ - إن هذه القبور مملوءة على أهلها ظلمة ٤٣
- ٣٤ - إنما الأعمال بالخواتيم ٤٤
- ٣٥ - إنما هذا الشرك ٣٦
- ٣٦ - إنه لا يأتي بخير - عن النذر - ٨٢
- ٣٧ - إنها - لا حول ولا قوة إلا بالله - كنز من كنوز الجنة ٩٨
- ٣٨ - إني عند الله مكتوب بخاتم النبيين ٥٧
- ٣٩ - أيها الناس والله مهما يكن من خير فلن ندخره ٣٧

- ب -

- ٤٠ - بعثت بالسيف بين يدي الساعة ٢١

- ح -

- ٤١ - حسبنا الله ونعم الوكيل ٢٤
- ٤٢ - حسبي من سؤالي علمه بحالي ٢٣
- ٤٣ - الحمد لله نستعينه ونستغفره ١٢٢

- ز -

٤٤ - زاد ستين سنة - عمر داود عليه السلام - ٢٥

- س -

٤٥ - سيد الاستغفار أن يقول العبد ٦٢

- ش -

٤٦ - الشرك في أمتي أخفى من ديب الثمل ٣٩

- ص -

٤٧ - صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا ٩٧

- ع -

٤٨ - عجا لأمر المؤمن ٦٤

٤٩ - على كل مسلم صدقة ٢١

- ك -

٥٠ - كان الله ولا شيء غيره ٥٦

٥١ - كيف تجدك ؟ ٣٤

- ل -

٥٢ - لا ، اعلّموا فكل ميسر لما خلق ١٣

٥٣ - لا إله إلا الله العظيم الحليم ٣٨

٥٤ - لاتخذوا قبرى عيدا ٨١

٥٥ - لاتتمنوا لقاء العدو ١٠٣

٥٦ - لاتحل المسألة إلا لذى غرم مقطع ٢٣

٥٧ - لاتسأل الإمارة ١٠٣

٥٨ - لاتطرونى كما أطرت النصارى عيسى ٨١

٥٩ - لاتقولوا ماشاء الله وشاء محمد ٨٠

٦٠ - لايقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا ٦٤

٦١ - لايموتن أحد منكم إلا أذتمونى به ٤٢

- ٦٢ - لعن الله اليهود والنصارى ٨١
 ٦٣ - لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ٦٠
 ٦٤ - ليسأل أحدكم ربه حاجته ٣١

- م -

- ٦٥ - ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ٣٧
 ٦٦ - ما اجتماعا في قلب عبد في مثل هذا الوطن ٣٤
 ٦٧ - ما تركت لأهلك ؟ ٢٢
 ٦٨ - ما عليكم ألا تفعلوا ٩٢
 ٦٩ - ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب ٧٥
 ٧٠ - ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ٦٨
 ٧١ - ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده ١٣
 ٧٢ - من أصبح والدنيا أكبر همه ٣١
 ٧٣ - من أكثر الاستغفار جعل الله له ٣٣ ، ١٢
 ٧٤ - من حلف بغير الله فقد أشرك ٨٠
 ٧٥ - من دعا إلى هدى كان له من الأجر ٥٠
 ٧٦ - من سره أن ييسط الله له في رزقه ٢٥
 ٧٧ - من قال : لا إله إلا الله مخلصا من قلبه ٣٩
 ٧٨ - من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت ٨٠
 ٧٩ - المؤمن القوى خير وأحب إلى الله ١٤

- و -

- ٨٠ - وآدم بين الروح والجسد ٥٧

- ي -

- ٨١ - يا أباذر ، لو عمل الناس كلهم بهذه الآية ١١
 ٨٢ - يا ابن آدم أن تنفق الفضل خير لك ١٩
 ٨٣ - يا أخى لا تنسنى من دعائك ٧٥
 ٨٤ - يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ٦١

- ٨٥ - يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى ٦١
- ٨٦ - يا غلام احفظ الله يحفظك ٨٠
- ٨٧ - يا معاذ هل تدري ما حق الله ؟ ٨٤
- ٨٨ - يجمع خلق أحدكم فى بطن أمه أربعين يوما ٢٨
- ٨٩ - يد الله هى العليا ويد المعطى التى تليها ١٩
- ٩٠ - يقول الشيطان : أهلكك الناس بالذنوب ٤٠
- ٩١ - يقول الله : أنا مالك الملوك ، قلوب الملوك ١١٣
- ٩٢ - يقول الله - عز وجل - : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى ٦٥
- ٩٣ - يقول الله - عز وجل - : يا ابن آدم ٨٥

فهرس الأعلام

(أ)

- ١ - ابن أبى عاصم ٤٠
- ٢ - ابن سينا ٧١
- ٣ - ابن العريف (الصنهاجى) ١٠٠
- ٤ - ابن ماجه ١١٢
- ٥ - أبو بكر الصديق ٢٢
- ٦ - أبو حامد الغزالى ٩
- ٧ - أبو الحسن الأشعرى ٥١
- ٨ - أبو داود ١٤
- ٩ - أبو ذر الغفارى ١١
- ١٠ - أبو سعيد الخدرى ٣٧
- ١١ - أبو موسى الأشعرى ٢٠
- ١٢ - أبو هريرة ١٤
- ١٣ - أحمد بن حنبل ١٥
- ١٤ - أرسطو ٧١
- ١٥ - أنس بن مالك ٥٥

- ب -

- ١٦ - البخارى ٥٦
- ١٧ - بلعام بن باعور ٩٥

- ت -

- ١٨ - الترمذى ١٢

- ث -

١٩ - ثابت بن أسلم (البناني) ٥٥

- ج -

٢٠ - جابر بن عبد الله ٩٢

٢١ - جهم بن صفوان ٤٩

- ح -

٢٢ - الحارث المحاسبي ١٥

٢٣ - الحكم بن سنان (الباهلي) ٥٥

- خ -

٢٤ - الخدرى (أبو سعيد) ٣٧

- س -

٢٥ - سعد بن أنى وقاص ٩٦

- ش -

٢٦ - الشافعى ٥٢

٢٧ - شقيق البلخنى ١٥

- ط -

٢٨ - الطبرانى (سليمان بن أحمد) ٨٥

- ع -

٢٩ - عائشة ٨١

٣٠ - العباس بن عبد المطلب ٧٤

٣١ - عبد الرحمن بن سمرة ١٠٣

٣٢ - عبد القادر الجيلانى ١٠٤

٣٣ - عبد الله بن عباس ٢٣

٣٤ - عبد الله بن عمر ٢١

٣٥ - عبد الله بن عمرو ٥٦

- ٣٦ - عبد الله بن محمد المروى ١٠٠
 ٣٧ - عبد الله بن مسعود ٢٨
 ٣٨ - العرياض بن سارية ٥٦
 ٣٩ - علقمة بن قيس ٦٨
 ٤٠ - علي بن أبي طالب ٣٤
 ٤١ - عمار بن ياسر ١٠٢
 ٤٢ - عمران بن حصين ٥٦
 ٤٣ - عمر بن الخطاب ٢٥

- غ -

- ٤٤ - الغزالي (أبو حامد) ٩

- ف -

- ٤٥ - الفارابي (أبو نصر) ٧١

- م -

- ٤٦ - مالك بن أنس ٥١
 ٤٧ - مسلم بن الحجاج (الإمام) ١٤
 ٤٨ - مسلم بن يسار ٥٤
 ٤٩ - معاذ بن جبل ٨٤
 ٥٠ - ميسرة الفجر ٥٧

- ن -

- ٥١ - النسائي ٥٤
 ٥٢ - نعيم بن ربيعة ٥٤

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة
٩	أولاً : في وجوب السعى وطلب الرزق
٩	الفتوى الأولى
٢٥	الفتوى الثانية
٢٨	الفتوى الثالثة
٣٣	ثانياً : في إثبات الأسباب
٣٣	الفتوى الأولى
٤١	الفتوى الثانية
٤٧	الفتوى الثالثة
٥١	الفتوى الرابعة
٥٣	ثالثاً : في أن الدعاء من نوع الأسباب
٥٣	الفتوى الأولى
٦٨	الفتوى الثانية
٧٣	الفتوى الثالثة
٨٣	رابعاً : في معنى التوكل
١١٠	خامساً : في عدم جواز التوكل إلا على الله
١١٠	الفتوى الأولى
١٢٧	فهرس الأحاديث
١٣٢	فهرس الأعلام
١٣٥	

رقم الإيداع ٩٧٢٦ لسنة ١٩٩٢
الترقيم الدولي

I.S.B.N
977 — 5083 — 71 — 0



٩٣٢٧٠٦ : ت

الجمع التصويري . غرافيكس للتجهيزات الفنية ت : ٢١٢٩١٨٤

هذا الكتاب

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ وَإِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ
قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾

[الآية ٣ من سورة الطلاق]

وقال رسول الله ﷺ : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم
كما يرزق الطير ؛ تغدو خماصاً وتعود بطائناً » رواه الإمام أحمد ، والنسائي
والترمذى وقال : حسن صحيح .

من هذا يعلم أن التوكل على الله من أعظم الأسباب التي يستجلب بها
الرزق ، فقد قرأ النبي ﷺ الآية السابقة على أنى ذر الغفارى - رضى الله عنه -
وقال له : « لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم » .

وحقيقة التوكل على الله : هو صدق اعتماد القلب على الله - عز وجل -
في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها ، وتحقيق
الإيمان بأنه لا يعطى ولا يمنع ، ولا يضر ولا ينفع سواه . قال الحسن البصرى :
« إن توكل العبد على ربه أن يعلم أن الله هو ثقته » .

وإن الإمام ابن تيمية غنى عن التعريف ، وهو إذ يتناول موضوع
(التوكل على الله) في فتاويه فإنه يوفيه حقه بما لا يدع مجالاً لمستزيد .

والدار المصرية اللبنانية إذ تقدم للمسلمين في كل مكان هذا السفر الجليل
فإنما ترجو الله تعالى أن ينفع به في توضيح هذا الجانب الإيماني الجليل ، والله
ولى التوفيق .

الناشر



طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبدالخالق لروت - طبرن ٢٩٢٢٥٢٥ - ٢٩٢١٧٤٢ - لاس : ٣٩٠٩٦١٨ - برقا : دار خلدو - مراب : ٢٠٢٢ - الامرة

AL-DAR AL-MASRIYAH AL-LUBNANIAH

PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALIQ SARWAT St. P.O.Box 3023-Cairo- Egypt PHONE: 3936743-3933535 FAX: 3999618 CABLE DARSHADO